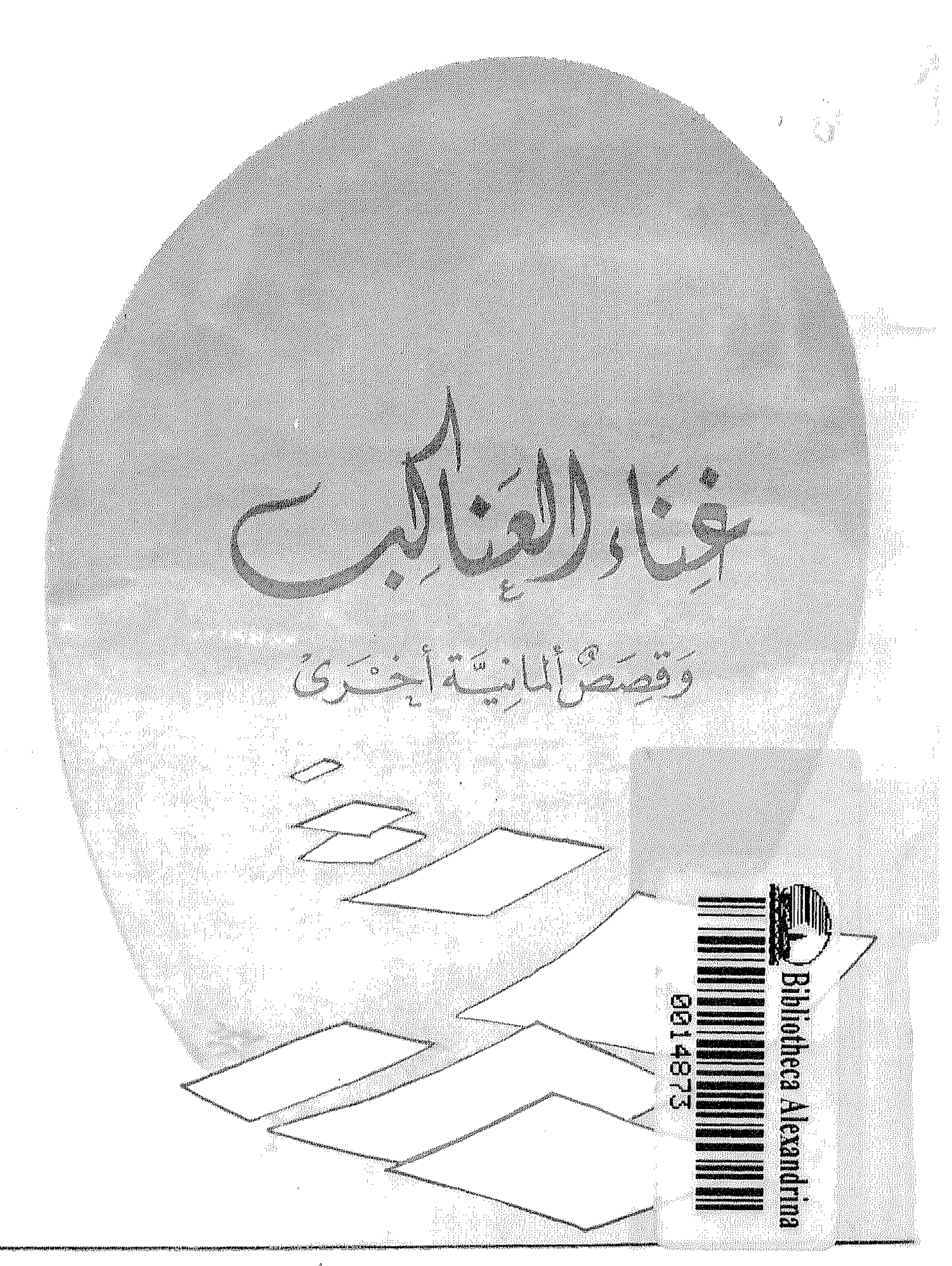

غناء العنادل
وقصص ألمانية أخرى
Bibliotheca Alexandrina
0014873

دار صادر



غناء العناكب



غِناء العَناكِب

وَقِصَصٌ ألمانيّة أُخْرَى

دار صادر
بيروت

هذا الكتاب هو ثمرة المجهود المشترك
الذي تمّ بين
دار صادر في بيروت ، لبنان
ودار هورست أردمن في هرن ألب ، ألمانيا
وفي مدينة بال في سويسرا .

اختار هذه المجموعة من القصص السيدة سيغريد كاله
بالاشتراك مع فؤاد رفقة ومجدي يوسف
وذلك من كتاب
« قصص ألمانية خلال العشرين سنة الأخيرة » ،
الذي أشرف على صدوره فولفجانج لنكنبوخر .

أما الترجمة من الألمانية إلى العربية
فقد قام بها كلّ من مصطفى ماهر ،
وفؤاد رفقة ، ومجدي يوسف ، وسمير التنداوي .

دار صادر : صندوق بريد ١٠ — بيروت

١٩٦٧

على قطيفة

بقلم : هاينتس ريسّه

قال موظف البنك وهو يضع الإيصال جانباً : « مائتان وثمانية وتسعون ماركاً ، يا سيّدة روتناجل. هل تريدين المبلغ في أوراق من فئة معيّنة ؟ »

وتنهّدت السيدة روتناجل : « آه » . وتظاهرت بأنّها تفكّر ، بالرغم من أن هذا السؤال يلقى عليها مرّة كلّ ثلاثة أشهر ، وتصنعت الحيرة أمام الشاب الذي تتصور أنه يدبر أمر كنوز البنك الهائلة ، ثمّ ردّت ردّها في كلّ مرّة : « آه يا سيّد جرول ، هذا أمر لا أهميّة له ، ولكن إن لم يكن في ذلك تعب عليك ، أرجوك ألاّ تعطيني أوراقاً عالية الفئة لأنّه لا يسهل عليّ فكّها في المتاجر » .

ونطقت بالكلمات الأخيرة هامسة ، فقد بدا لها من غير اللائق أن تثقل على السيّد جرول بمعرفة السبب الذي ترجوا

من أجله الحصول على أوراق من فئة صغيرة ، ولكن هذا الخاطر كان دائماً يخطر لها عندما تكون قد بدأت الجملة ، فتهمس الجزء الأخير منها لتجرّده من ثقل لم يؤته . واتجه السيّد جرول إلى دولاب الخزينة الفولاذي وأخرج منه كميّة من الأوراق وقطع العملة وعدّ المبلغ على لوح الزجاج بحركات سريعة كانت السيّدة روتناجل تعجب بها مرّة كلّ ثلاثة أشهر ، ثمّ رجع نصف خطوة إلى الوراء — كان هذا يعني أنّه انتهى وأن عليها أن تراجع الحساب .

كانت تلك اللحظة لحظة أليمة بنوع خاص بالنسبة للسيّدة روتناجل — ألا يعتبر السيّد جرول قيامها بمراجعة الحساب على طريقتها المتعبة بعد أن عدّ هو المبلغ بطريقة بارعة ، علامة على عدم الثقة به ؟ عندما وضع السيد جرول لها لأوّل مرّة أرباح مالها على اللوح الزجاجي منذ ثلاثة أرباع العام — وكان قد نُقل إلى هذا الفرع منذ قليل — قالت له متردّدة إن مراجعة الحساب أمر يؤلمها ويخجلها ، ولكن السيد جرول — وكان يتصف رغم صغر سنّه بالنُّبل — قال لها إن موظف البنك مهما كان حذراً فإنّه ليس معصوماً عن الخطإ ، وإن أي خطإ في الحساب لا بدّ أن يصلح على الشبّاك فوراً وإلاّ فإنّه لا يُعتبر في نظر البنك خطأً ، ثمّ حكى لها قصة العميل الذي تسلّم مالاً من البنك وانصرف به ثمّ عاد بعد

ساعة ليقول إنّه تبيّن أن هناك مائة مارك زائدة عن حقّه وإنّه يريد ردّها .

زائدة ؟

نعم زائدة . ولكن البنك رفض أن يعترف بالخطإ وتمسك بالمبدإ ، فالمبدأ أهمّ من الحالات الفرديّة ، هذا واضح . كذلك عندما تبيّن في المساء عند مراجعة حساب الخزينة أن هناك عجزاً قدره مائة مارك ، تظاهر البنك بأن شيئاً لم يحدث . أليس هذا شيئاً رائعاً ؟ بلى ، بكلّ تأكيد ، فيه شيء من صلابة وانتظام ودقّة حركة الأفلاك . ومع ذلك ، فقد كان البنك يستطيع أن يتصل بالعميل ، ولعلّه كان في ذلك الوقت مستعدّاً لردّ المبلغ . ربّما . ولكنك تفهمين الآن أن البنك له مبادئه ، وأنّه يتمسّك بها ، وجميع العاملين بالبنك يتعلّمون في ظلّ روحها — والحياة تتكوّن من مبادىء ، لا من حالات فرديّة .

وفكّرت السيّدة روتناجل : إن الإنسان لا يخطىء إذا وضع ثقته في أُناس مثل هذا الرجل ، وأُعجبت بصفة خاصة بالجملة الأخيرة . فلو كانت الحياة مجموعة من الحالات الفرديّة لكانت فوضى ، لكانت عالماً قائماً على رمال ، ولضاعت الثقة وانطوى الأمان .

ولهذا السبب عينه ظلّ شعورها إزاء مراجعة المبلغ الذي

يقدّمه لها السيّد جرول شعوراً مزدوجاً لا يخلو من الألم والخجل . وكانت تفكّر في أنّه ينبغي لها أن تولي هذا الرجل الثقة ، وفي أن مبادىء البنك تتطلّب مني أن أفعل شيئاً ، كما لو لم تكن لديّ ثقة به .

وهكذا امتثلت للعرف الجاري رغم أنّه لم يكن يرضيها، وحتّى لا يطول بها تحمّل نظرة موظف البنك الفاحصة ، دسّت الأوراق وقطع العملة بسرعة في حقيبة يدها ، ففي البيت متسع لترتيبها .

وقالت وهي تقفل حقيبة يدها : « لعلّك تدهش يا سيّد جرول من أنّني أتسلم أرباحي كلّ ثلاثة أشهر » .

فردّ الموظف قائلاً : « لا يا سيّدتي . ليس من حقّنا أن نفكر في السبب الذي يسحب العملاء من أجله شيئاً من أموالهم » .

وفكّرت السيّدة روتناجل : هذا مبدأ آخر ، لا أعلم . . . ولكن ربّما . . . هناك بطبيعة الحال أناس كثيرون ، يحتفظون بمدّخراتهم في البنك — ولو راح موظفو البنك يفكّرون لماذا يسحب هذا مالاً وماذا يفعل به ، لفتحوا على أنفسهم باباً لا سبيل إلى قفله . لقد فكرت في الناحية الإنسانيّة من الموضوع ، ولكن المال لم يوجد للناحية الإنسانيّة .

وقالت السيدة روتناجل : « إنّني أحتاج إلى الأرباح

لأنفق منها على معيشتي » ، وحسب جرول الحساب وقال في نفسه : لا يمكن أن تعيش من مبلغ يقلّ عن مائة مارك شهريـاً .

واستأنفت السيّدة روتناجل حديثها قائلة : « وأتقاضى علاوة على ذلك معاشاً من الدولة . . . فقد مات زوجي منذ عشرين عاماً . وما أحصل عليه من الأرباح ومن المعاش يكفيني مؤونة الجوع ، وليس من العسير على الإنسان أن يقتصد إذا لم يكن لديه من يعوله » .

وردّ جرول قائلاً : « لا . ربّما » . وفكّر جرول أنّها لا بدّ تعاني مشكلة وإلاّ فما يدفعها إلى أن تروي لي هذا ؟ ثمّ قال : « إذا أردتِ مني استشارة أو نصيحة فأنتِ تعلمين أنّني رهن إشارتك » .

فقالت السيّدة روتناجل : « نعم ، إن لم يكن في هذا إثقال عليك . . . » .

وتردّدت مرتبكة ثمّ استأنفت حديثها قائلة : « فأنا أقتصد . وقد ورثت شيئاً قليلاً منذ أعوام ولكني كنت طوال حياتي أضع الدرهم على الدرهم ، صدقني يا سيّد جرول ، ولم يحدث قطّ أن مددت يدي إلى ما تجمّع لي من رأس مال ، كنت لا أتعدّى الأرباح بحال من الأحوال بل إنّني كنت أوفر شيئاً من الأرباح فيما مضى » . وأومأ جرول برأسه .

واستأنفت السيدة روتناجل حديثها : « نعم ، والآن ، والآن لا سبيل إلى ذلك . ولكن ما معنى : لا سبيل إلى ذلك ؟ معناه أنّني لا أغطّي نفقاتي . كلّ شيء ارتفع ثمنه ، بمرور الأعوام ، بطيئاً بطيئاً دون أن يلاحظ الإنسان ، ولكن المبالغ التي أتقاضاها لم تتغيّر – صدّقني يا سيّد جرول . إنّني مدينة للخبّاز منذ الشهر الماضي . كذلك إيجار المسكن عن الشهر القادم لا بدّ أن أدفعه من المال الذي أعطيتني إيّاه اليوم . فيما مضى كانت النقود التي أتقاضاها في نهاية كلّ ربع من أرباع العام تكفي لدفع إيجار المسكن ، ولكني الآن لا أغطّي نفقاتي يا سيّد جرول ، هذا ما في الأمر ، وذلك على الرغم من اقتصادي كلّه » .

وردّ السيّد جرول : « ينبغي إذن أن تكسبي أكثر » .

وسألت السيّدة روتناجل : « هل تعني أنّه ينبغي لي أن أقوم بعمل ؟ ولكن أين هذا الذي يوظف امرأة عجوزاً مثلي يا سيّد جرول ؟ لقد بلغت من العمر الثالثة والسبعين » .

وهزّ جرول رأسه .

وردّ عليها قائلاً : « لا ، لم أفكّر في هذا » . ثم صمت برهة وقال : « ينبغي أن نوظف مدخراتك على نحو يجعلها تغلّ أرباحاً أكثر من اليوم » .

وسألت السيّدة روتناجل : « هل هذا ممكن ؟ »

وردّ السيّد جرول : « سأفكّر في الأمر . وتكرّمي بالمرور عليّ غداً أو بعد غد » .

فقالت السيّدة روتناجل : « على الرحب والسعة . أعني . . . » وتردّدت ثمّ راحت تقول : « إذا لم يكن لديك مانع . . . وهذا مجرّد اقتراح بطبيعة الحال . . . أدعوك إلى زيارتي وتناول قدح من القهوة غداً أو بعد غد بعد أن تكون فرغت من العمل ، فستتاح لنا فرصة للكلام أهدأ من الفرصة التي تتاح لنا على الشبّاك — وسيسرّني جدّاً أن تأتي لزيارتي » .

وأومأ السيّد جرول برأسه وقال : « سآتي إليك على الرحب والسعة بعد غد ، بين الخامسة والسادسة ، وسيسرّني أن أتمكّن من مساعدتك » .

وردّت السيّدة روتناجل بقولها : « أنت كريم جدّاً ، نعم كريم جدّاً . أشكرك . إلى بعد غدٍ إذن » . وصافحته من فوق القرص الزجاجي وانصرفت . . .

كان البيت الذي تسكن فيه السيّدة روتناجل في حيّ كان فيما مضى أحسن ممّا هو الآن ، أمّا الآن فقد بدا الفقر وعدم الاعتناء والشيخوخة على واجهات بيوته . خريف وتساقط أوراق ، موت متسلّل ، لا شيء يذكر بذلك الفناء الناظر الرامز إلى بعيد ، طلاء الحيطان تساقط وتهدم ، تلك الحيطان التي كانت تحجب خلفها أجنحة من الحجرات الرائعة فيما

مضى وأصبحت الآن تواري غرفاً صغيرة رديئة . وكان صفّا الدرج اللذان صعدهما جرول إلى السيدة روتناجل فيما مضى مغطيين بالسجاد يتذكره الإنسان عندما يرى حلقات النحاس المحطمة أو المنبعجة هنا وهناك بين الدرج الرخامي ، تلك الحلقات التي كانت العيدان النحاسيّة مثبتة فيها لتمسك السجاد . كان السلّم والدرابزين مطبوعين بطابع الإعياء وانقطاع النفَس الذي يميز الحياة التي وقعت من تيار إيقاعها .

وقرع جرول الباب الزجاجي الذي كان يرسم الحدّ الخارجي لبيت عميلته من ناحية السلّم . وفتحت السيّدة روتناجل بعد لحظات قليلة ، ولعلّها كانت تقف وراء الباب منذ مدّة تنتظر الضيف .

وقال : « نهارك سعيد يا سيّدتي الكريمة » وقبّل يدها ، فقد كان البنك يهتمّ كثيراً بأن يرعى موظفوه في تعاملهم مع الزبائن أصول السلوك الرفيع .

وردّت السيّدة روتناجل : « نهارك سعيد ، يا سيّد جرول ، كم أنا سعيدة بحضورك . وأنا الآن للأسف أسكن إلى درجة ما — أقصد لا أسكن الآن في المستوى الذي كنت أسكن فيه قديماً — كان هذا البيت فيما مضى ، قبل عشرين عاماً ، بيتاً جميلاً ، مثل الحيّ كلّه . . . هل تريد أن تضع قبّعتك ؟ ومعطفك ؟ هذه هي حجرة المعيشة ، ادخل من فضلك » .

وفتحت باباً فتركها جرول تتقدّمه ، كانت المنضدة جاهزة وكان إبريق القهوة عليها ، تحته طبق من الصيني وفوقه غطاء من النسيج المنجد لحفظ الحرارة .

وعادت السيّدة تقول : « حقيقة يا سيّد جرول ، إنّني أجد من الكرم أنّك أتيت ، هل تتفضّل بالجلوس ؟ »

وصبّت قهوة وقدّمت إليه اللبن والسكّر .

« هل تدخن ؟ »

لا ، لم يكن السيّد جرول من المدخّنين .

هكذا دائماً ؟

لا ، قديماً كان السيّد جرول يدخن أحياناً ، ولكن التدخين لم يكن يلذّ له ولذلك كفّ عن التدخين .

وفكّرت السيّدة روتناجل .

وقالت : « كذلك ابني لم يدخن إطلاقاً ، أو على الأصحّ لم يدخن إلاّ نادراً . لم يتعوّد التدخين إلاّ بعد أن جُنّد ؛ ولم يدم به هذا إلاّ فترة قصيرة على الجبهة ، لأنّه سقط في الحرب ، تلقّى شظايا القنابل في قلبه ، فمات على الفور ، كما كتب إليّ بعضهم . عندما مات كان في مثل سنّك تقريباً يا سيّد جرول » .

وأومأ السيّد جرول برأسه ، وبدا على وجهه التأثّر ، ولكنّه صمت . وفكّر : إنّها ذكريات . ولا يستطيع

الإنسان أن يعيش فوق السحاب .

وعادت السيّدة روتناجل بعد صمت تقول : « وأنت تذكّرني عموماً بابني . ولعلّ هذا هو السبب الذي يجعلني أثق بك . أمّا زوجي فقد مات منذ عشرين عاماً ، فلمّا مات ابني في الحرب أصبحت وحيدة — والناس يقولون إن الإنسان عندما تتقدّم به السنّ يعيش على ذكرياته أو يعيش في ذكرياته ، ولكن لا أصدق هذا يا سيّد جرول ، بعد عشرة أعوام أو قل عشرين ، وها تدور أنت بين الظلّ والمنضدة ، وها الساعة لا تزال تدقّ في مكانها على الحائط ، وتحسّ أن ما كان ضاع ولا سبيل إلى العثور عليه مرّة ثانية » .

ونظر السيّد جرول مرتبكاً ؛ كان قد أتى ليقدم نصيحة في موضوعات خاصة بالأموال ، وينصحها بالالتفات إلى المادة والاستثمار ، وينبهها إلى أن المشاعر لا تبقي على العناصر الحيويّة . فأومأ برأسه وصمت .

ونهضت السيّدة روتناجل وتناولت من منضدة صغيرة قرب الشبّاك صورة قدمتها إليه .

وقالت : « هذه صورة لابني ، التُقطت له قبل وفاته بعام » .

وتفحّصها جرول : وجه شاب ، يشبه أو لا يشبه الآلاف ، فالطبيعة لا تسمح لأحد بأن يتدخّل في سلاسل تجاربها ، هذا الشخص لن ألقاه أبداً .

وسألها : « هل ترين أنّني أشبهه ؟ بصراحة » .

وقاطعته : « الصورة رديئة . والحقيقة أنّه لا توجد صورة جيّدة لإنسان تحبّه ، ألا ترى هذا الرأي أنت أيضاً ؟ أعني أنّه لا توجد له صورة تعطي للغريب إذا نظر إليها فكرة عمّن كان صاحبها ، أو عن أحواله ، فالصورة لا تزيد ولا تنقص عن أن تكون شيئاً ــ شيئاً بلا حياة ، هذا رأيي » . وارتعش صوتها ، حتّى اعتقد جرول أن دموعها اقتربت . واستأنفت حديثها قائلة : « أمر هذه الصورة هو أمر الذكريات جميعاً . إنّها حدائق ذابلة يهيم فيها المرء بينما الساعة لا تزال تدقّ في الحجرة التي هو فيها . لو كنت عرفت ابني لفهمت لماذا تذكرني به » .

فقال جرول مشتتاً : « نعم ، يا سيّدتي الكريمة » . كان يفكر بشيء آخر ، وكانت السيّدة روتناجل من الحساسية بحيث فهمت ذلك على الفور .

وقالت : « نريد أن نصل إلى موضوعنا يا سيّد جرول . لعلّك فكّرت في الاقتراحات التي تريد أن تقدمها إليّ » .

وأومأ السيّد جرول برأسه ؛ كان قد فكّر في طريقة استثمار أموال السيّدة روتناجل بحيث تغلّ أرباحاً أكثر ؛ كانت هناك إمكانيات عديدة . وأخذ يصف لها الفروق بين السندات وبين القروض ، والديون الحكوميّة ، وما يقال له

بضمان الحكومة ، والأوراق التي يخسر فيها الإنسان رغم ضمان الحكومة لها إذا ساءت حالة العملة ، وقال لها إن هناك للأسف في كلّ بلاد الدنيا هبوطاً في قيمة العملة يتسلّل إلى الاقتصاد ويسمّيه أهل المال اختفاء القوّة الشرائيّة — وأضاف : إن الإنسان يستطيع أن يتفادى هذه المجازفة عندما يشتري أوراقاً ماليّة لا تنص بحسب حجمها على مبلغ معيّن بل تُعتبر إسهاماً في المادة الحيّة للاقتصاد — يعني أسهماً مثلاً ، إذا أردنا أن نذكر اسم أداة التمويل الاقتصادي المفضلة في هذا القطاع . طبعاً في هذه الحالة هناك مخاطر ينبغي أن يحسب الإنسان حسابها ، ولكن الدنيا كلّها هكذا ، لا ربح بلا مخاطرة — وفي حالة الأسهم تكمن المخاطرة في أن قيمتها وربحها مرتبطان بنشاط وتقدّم الشركة صاحبة الأسهم — وهذه المخاطرة تتغيّر في أوقات انفعال الحياة الاقتصاديّة إمّا بالربح أو بالخسارة . فرأس المال في حقيقته شيء عضوي حسّاس .

وظلّت التفصيلات الدقيقة للأفكار الاقتصاديّة التي عرضها السيّد جرول على السيّدة روتناجل لأفضل طريقة استثمار لأموالها ، أموراً غامضة لا سبيل لها إلى فهمها ، ولكنها كانت مطمئنّة إلى أنّها تقف في حماية رجل له معلومات عميقة بالعمليات الاقتصاديّة . هذا ما عبّرت عنه نظرتها . وختم

السيّد جرول كلامه بأنّه لا يفكّر بطبيعة الحال في الإشارة على السيّدة الكريمة بأن تقرّر استثمار أموالها في شيء واحد ، فكلّ ناحية من نواحي الاستثمار العديدة لها فوائدها ومضارّها ، ولهذا فإنّه يرى من الأفضل أن تستغلّ السيّدة روتناجل الإمكانيات المتاحة المختلفة معاً كما بيّن لها . وقال إن صاحب رأس المال يميل إلى استثمار أمواله بحيث تكون المخاطرة موزعة .

وأومأت السيّدة روتناجل برأسها : فقد وضح لها ما قاله جرول .

واستأنف السيّد جرول حديثه قائلاً : حسناً ، سيُعدّ في اليوم التالي قائمة بالأوراق الماليّة يرسلها إليها حتّى تختار منها ما يطيب لها .

فصاحت السيّدة روتناجل : « أنا ؟ ولكنّي يا سيّد جرول لا أفهم في هذه الأمور ، فكيف يمكنني أن أختار لك الأوراق التي تشتريها ؟

فقال السيّد جرول وهو يبتسم : « على أيّة حال ستشترى الأوراق من أموالك » .

وردّت السيّدة روتناجل : « حسناً ، ولكن هذا ليس الفصل في الموضوع ، المهمّ هو علمك وفنّك يا سيّد جرول » . ثمّ فكّرت ، وسألته بعد برهة : « أتعلم ما هو أحبّ شيء إلى نفسي ؟ »

« ماذا ؟ »

وردّت السيّدة روتناجل : « ألا يكون لي شأن بشراء الأوراق ، فأنا امرأة لا أفهم شيئاً فيما ينبغي أن يُفعل تحقيقاً لأفكارك ، كلّ ما أستطيعه هو أن أوافق على رأيك عندما توصيني بشراء هذه الورقة أو تلك – فلماذا لا يكون لك التصرّف ؟ ثمّ تخبرني بعد ذلك بما تمّ » .

فقال جرول : « في هذه الحالة ينبغي أن تعطيني توكيلاً يخولني التصرّف في حسابك » .

وسألت السيّدة روتناجل : « ولِمَ لا ؟ فأنا أثق بك » .

وردّ السيّد جرول : « ولكن إدارة البنك لا تحبّ أن يكون موظفو البنك وكلاء للعملاء ، ولهذا لا بدّ من الحصول على موافقة الإدارة » .

وقالت السيّدة روتناجل : « طبعاً ، إذا كنت ترى هذا ضروريّاً . أرجوك أن تتّخذ اللازم غداً مباشرة » . ولاحظت أن السيّد جرول متردّد ، فراحت تقول : « ليس لك يا سيّد جرول أن ترفض رغبتي . فليس الأمر مجرد شراء ، أليس كذلك ؟ ربّما تبينت فيما بعد أن الأصوب إعادة بيع ورقة كنت قد اشتريتها من قبل – فلو لم يكن لديك توكيل ، كان عليك أن تحصل على موافقتي في كلّ حالة ! وليس لدي تليفون ، أو ربّما أكون في مكان آخر ، عند أختي مثلاً ،

ولا تستطيع أن تتصل بي — وهذه الأمور أمور عاجلة تحتاج إلى سرعة التصرّف ! »

وردّ السيّد جرول : « كما تريدين . إذا لم تعترض الإدارة ، فسألبي رجاءك عن طيب خاطر » . وابتسم مرتبكاً ثمّ قال بعد برهة : « لا تتمّ الأعمال دائماً على نحو ما يتمنى المرء ، وقد تنتهي صفقة على نحو آخر غير الذي توقعته — أليس كذلك ؟ فهل تلومينني ؟ »

وهزّت السيّدة روتناجل رأسها .

وسألت : « كيف أسمح لنفسي بهذا ؟ لا يا سيّد جرول ، أنا مطمئنّة إلى أنّك ستفعل من أجلي ما تستطيع — فإذا طرأ شيء لم يكن في استطاعتك أن تتحاشاه ، فلن يكون لي الحق في لومك ، ولن ألومك أبداً يا سيّد جرول » .

ونظرت إليه نظرة ثاقبة وهي تقول الكلمات الأخيرة . وفكّر السيّد جرول : إنّها تفكّر الآن في ابنها وفي أنّني أذكرها به . وثقل عليه أنّها في بساطتها لم تكن تستطيع أن تُسكت الصيحات المنطلقة في أعماق نفسها .

وقال : « إذا كانت الإدارة موافقة » .

وهزّت السيّدة روتناجل رأسها .

وسألت : « وما يمنعها من أن تكون موافقة ؟ لا شكّ أنّها ستعطيك موافقتها » .

وفكّر جرول أنّها تتصوّر على نحو خاطىء ما سينبغي عمله . إنّها تتحدّث عن الأمور العاجلة التي تحتاج إلى سرعة التصرّف . لماذا ؟ ألا تعتقد أنّه من المجدي أن تضارب بالأموال التي لديها ؟

وفكّر : سأودع أموالها بحيث تحصل على نسبة من الأرباح أكثر من التي تحصل عليها الآن ، وخطرت بباله قصة زميل له ضارب بأموال أحد العملاء حسب رغبته ، وأدّت المضاربة إلى خسارة العميل ، فاشتكى لدى الإدارة ، ظلماً طبعاً ، ولكن الزميل فقد مع ذلك وظيفته ، فلا توجد العدالة إلاّ نادراً ، إذا لعبت النقود دورها . ولست في مثل غبائه .

ونهض .

وقال : « لا بدّ أن أنصرف الآن يا سيّدتي الكريمة ، وسأتصل بك بعد أن أكون قد تحدّثت مع الإدارة في الموضوع . وأشكرك أعظم الشكر على دعوتك إيّاي إلى القهوة » .

وردّت السيّدة روتناجل : « عفواً عفواً ، يا سيّد جرول ، بل أنا التي أشكرك لأنّك تفضلت فأتيت إليّ » .

ونزل جرول الدرج العتيق ، وتبيّن فجأة أن كلّ هذا ، البيت وزيارة السيّدة روتناجل ، ورغبتها في أن يهتمّ بأموالها القليلة ، تحت مستوى كرامته ، وتحت مستوى الصفقات التي يهتمّ بها — ليتني لم آتِ إليها ، فكلّ ما رأيته اليوم مثقل

بأحاسيس من الماضي وذكريات قديمة كلّها مشاعر . ولكني لا أستطيع أن أقول الآن : لا .

كان الترام الذي ركبه جرول عائداً إلى بيته خالياً من الركاب أو يكاد ، فجلس على مقعد قرب الشباك ونظر إلى الخارج . وفكّر : يمكنني أن أنسحب بأن أزيّن للمدير رفض الموافقة على توكيلي ، ولكن السيّدة العجوز ستعتقد أن البنك لا يثق فيّ ثقة كاملة كما ظنّت ، وهذا ما لا أحبّه .

وركب في الترام في المحطات التالية بعض الناس ، ولكن جرول لم يحفل بهم . وفكّر : ومن ناحية ثانية فإن سمعتي سترتفع في نظر الإدارة ، عندما تضع عميلة مثل السيّدة روتناجل ثقتها الكاملة فيّ . ولاحظ قبل أن يصل الترام إلى المحطة التي كان ينوي النزول فيها أن شخصاً يراقبه ، فرفع بصره إلى أعلى ، وإذا برجل كان يقف قرب الباب يُقبل نحوه .

وقال الرجل : « نهارك سعيد يا سيّد جرول . كيف حالك ؟ »

وردّ جرول : « شكراً . لم نتقابل منذ مدّة طويلة يا سيّد أشنبرج ، أظنّ منذ عامين ؟ أرجو أن تعذرني فهذه هي المحطة التي سأنزل فيها » . ووقف الترام .

وقال أشنبرج : « وأنا كذلك . أريد أن أقوم بزيارة

وراء الحديقة » .

وأجاب جرول : « هذه هي المنطقة التي أسكنها » .

وتركا الترام .

وقال أشنبرج : « إذا لم يكن لديك مانع ، فلنسر معاً جزءاً من الطريق » :

وأومأ جرول برأسه .

وسأل أشنبرج : « أما زلت في البنك ؟ »

فأجاب جرول : « نعم . ولكني لم أعد في البنك الرئيسي ، بل أعمل الآن في فرع الجنوب »، وقال في نفسه: لِمَ لا ينبغي أن يعلم أنّني تقدّمت منذ عامين ؟ — وأضاف « أنا المدير هناك » .

وتفحصه أشنبرج من الجانب . وأحسّ جرول أن رفيقه يبتسم — وتذكّر جرول أن أشنبرج كان يُعتبر أثناء عمله في البنك من الساخرين . وفكّر : ما كان ينبغي لي أن أذكر له مسألة رئاسة الفرع .

وقال أشنبرج : « عندما تركت البنك كان فرع الجنوب يعمل به ثلاثة موظفين » . كانت تلك ملاحظة موضوعيّة ، يبدو أن السخرية فيها كانت تكمن في أنّه قالها .

وردّ جرول : « إن لك ذاكرة قويّة . أمّا الآن فيبلغ عدد الموظفين به أربعة » .

وسأل أشنبرج : « منهم أنت ؟ »

وردّ جرول : « نعم » ورأى أن الأصوب هو أن يغيّر موضوع الحديث . فسأله : « وماذا تعمل ؟ »

فقال أشنبرج : « أنا مستقلّ . عندما يبلغ الإنسان الثلاثين ، يجب أن يكفّ عن العمل للغير . هذا شيء ستستصوبه أنت أيضاً يوماً ما . أنا أتاجر في المعادن ، وقد تقدّمت التجارة منذ اشتغلت بها . أي منذ عامين » .

وفكّر جرول : تهويل ! وإلاّ لماذا يركب الترام إذا كانت التجارة متقدّمة ؟

واستأنف أشنبرج الحديث وكأنّه قرأ أفكار جرول : « نعم ، الأعمال سائرة على نحو جيّد ، ولا مجال للشكوى . ولكن أتعلم السبب في تقدّمها ؟ السبب هو أنّني أحكمها — كلّ واحد يستطيع بعثرة النقود ، أمّا أنا فأقلّل من النفقات وأقول إن هذا هو السبيل إلى المحافظة على الصحة وعلى القدرة على الدفع » .

وسأله جرول : « هل لك صلة وثيقة ببعض البنوك ؟ » وفكّر في اللحظة نفسها أنّه بهذا السؤال ينحدر إلى غلطة شديدة وودّ لو استطاع أن يسترجعه . ولكن يبدو أن أشنبرج لم يجد شيئاً غريباً في ملاحظة جرول لأنّه ضحك وقال :

« وإلاّ فإنّك تودّ أن أنقل حسابي إليك ؟ لِمَ لا نتقابل

مرّة ونتحدّث في هذا الموضوع ؟ أنا لم أنسَ مكان فرع الجنوب ، وربّما أتيت لزيارتك قريباً . هل ستستمرّ في السير في هذا الاتجاه ؟ لأنّني سأتجه الآن إلى اليسار . إلى اللّقاء » .

واتصل جرول في الصباح التالي بالإدارة وقال إنّه يودّ أن يتحدّث في موضوع خاص بحساب إحدى العميلات وسأل عن موعد للزيارة . لا ، ليس الحساب ذا أهميّة كبيرة . لا ، في التليفون لا يستطيع مناقشة الموضوع . فحدّدوا له عصر اليوم موعداً للزيارة والتفاهم في الأمر .

عندما دخل جرول عند المدير وجده يقلّب في ملفّ تبين جرول بنظرة سريعة أنّه يتضمّن أخبار الفرع الجنوبي وتقريراته في الأشهر الأخيرة .

وقال المدير وهو يشير إلى كرسي وثير على جانب بجوار المكتب : « تفضل ، اجلس » .

وسأل : « ماذا دفعك إلى طلب زيارتي ؟ » ولم ينتظر إجابة بل راح يقول : « لقد اطلعت على تطوّر أعمال فرعك ويظهر أنّك عملت واجتهدت على نحو لا بأس به ، ولعلّك تعرف هذا أنت نفسك » .

وأومأ جرول برأسه .

واستأنف المدير كلامه : « كذلك وصلتنا من عملائك

أحكام عليك في صالحك ، تذكر الأمانة التي تؤدي بها أعمالك ، والأدب الذي تعامل به عملاءك — وقد نويت أن أقترح على مجلس الإدارة زيادة مرتبك . وأعتقد أنّك لا تعارض في هذا » .

وانحنى جرول قليلاً .

وأجاب : « أنا مدين لك بالشكر على اعترافك بحسن قيامي بالعمل » .

وفكّر : ما قلته لا يزيد ولا ينقص عن أن يكون كلاماً فارغاً ، لِمَ قلته ؟ لقد أحسنت القيام بالعمل ، وهو يريد أن يرفع مرتبي — فما معنى قولي : الشكر على الاعتراف بحسن قيامي بالعمل ؟ ولكن المدير لم يفكّر في الخوض في قياس نسبة الحقيقة في الجملة ، بل أومأ برأسه وسأل :

« هل تتكرّم بعرض الحالة التي دفعتك إلى القدوم إليّ ؟ »

وصوّر جرول زيارته للسيّدة روتناجل ، وأخرج من حقيبته حساب السيّدة لدى البنك حتى يكوّن المدير فكرة عن حجم المسؤوليّة التي تنتظر السيّد جرول ، إذا وافق المدير على تحقيق رغبة العميلة . وسكت المدير عندما انتهى جرول من كلامه ، وأخذ جرول ينظر إليه بانتباه ، وهو يودّ أن يعرف هل يفكر المدير فعلاً في كيفيّة التصرّف في هذا الموضوع ، أم هل كان يؤجل الردّ على الفور حتى

يستطيع فيما بعد أن يؤكّد أن قراره جاء نتيجة تفكير عميق .

وقال المدير بعد برهة : « أنت تعلم يا سيّد جرول ، أنّنا لا نرحّب بقيام موظفينا بمهام من هذا النوع . وأغلب العملاء يظنون أن موظف البنك يعرف سرّ كسب المال بدون عمل ، ويغضبون إذا لم يروا شيئاً من مفعول فنّه السحري . على أيّة حال ، يبدو أن السيّدة روتناجل لن تلومنا إذا أدرت لها أموالها حسب القواعد النظيفة الّتي تعلّمتها عندنا ، لهذا فأنا لا أميل إلى الرفض » .

وقطع المدير جملته قبل أن يكملها .

وسأل : « هل صحيح ما فهمته من كلامك ؟ لقد قلت إن السيّدة روتناجل اكتشفت شبهاً بينك وبين ابنها الذي سقط في الحرب ؟ »

وأومأ جرول برأسه .

وقال : « نعم . ولكني لا أعتقد أن هناك فعلاً مثل هذا الشبه . فقد أرتني صورة فوتوغرافيّة لابنها ولم أستطع أن أتبيّن أنّني أشبهه . كلّ ما في الأمر أنّه شاب » .

وردّ المدير : « لا توجد هناك صورة تستطيع أن تعكس صورة الإنسان كما هو بالضبط » . وداعب لحيته المدبّبة وتصنّع الحكمة : « والسيّدة روتناجل تعرف بلا شكّ من ابنها أكثر ممّا تبيّن الصورة » .

ثمّ سكت لحظة وابتسم .

وقال : « لعلّها تنوي أن تترك لك أموالها بعد وفاتها يا سيّد جرول . وحتّى إن لم يكن الأمر كذلك — فلست أجد ما قد يثير شكوكي — سأستثني هذه الحالة من قواعدنا . اكتب إليها إذن أنّك مستعدّ لتلبية رغبتها . ولا شكّ أنّك تعرف التعليمات الشكليّة التي ينبغي لك مراعاتها » .

وأومأ جرول برأسه ونهض ، كذلك نهض المدير .

ثمّ سأل جرول وهو يمدّ يده لمصافحته : « ليس لديك اليوم غير هذه الحالة للعرض ، هه ؟ »

فردّ جرول : « لا . أعني أنّني التقيت بالأمس في الترام بالسيّد أشنبرج . هل تذكره ؟ لقد كان يعمل عندنا فيما مضى ، وخرج من الخدمة منذ عامين » .

وقال المدير : « أعرف هذا . إنّه يشتغل بتجارة المعادن ، وله حساب في بنك غير بنكنا ، ولكن يقال إن أحواله على ما يرام . هذا الرجل كسمك القرش — هل سمعت مرّة عن واحد من سمك القرش ساءت حاله ؟ »

« لقد اقترحت عليه أن يفتح حساباً في فرع الجنوب » .

« وبماذا أجاب ؟ »

« بأنّه ربّما يمرّ عليّ ذات مرّة » .

وقال المدير : « من الممكن أن يعيش الإنسان في مجتمع

أسماك القرش ، إذا لم يكن الإنسان من الأسماك النهريّة . أمّا إذا أراد الحصول على قروض فعليك أن تتصل أوّلاً بالإدارة » . — « إلى اللقاء » .

عندما ذهبت السيّدة روتناجل بعد مرور ستّة أشهر على هذا الحديث إلى الفرع الجنوبي لتتسلّم الأرباح تلقت ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ماركاً . كانت جهود السيّد جرول من أجل أموال السيّدة روتناجل قد بدأت تثمر . أمّا السيّد أشنبرج الذي كان قد وعد بأن سيمر ذات مرّة على فرع الجنوب ، فالظاهر أنّه نسي ، لأنّه لم يأتِ . وكان جرول قد فكّر فيما فكّر في أن يتصل به ، ويذكّره ، ولكنّه رأى أنّه بذلك يتعرّض لخطر التحوّل إلى دور السمكة الليّنة ، إذا اتصل بسمك القرش وذكّره بشيء كأنّما يذكّره بجميل أو خدمة — فصرف النظر عن ذلك . ولكن الحديث الذي دار بينهما وهما يسيران في الحديقة كان لا يفتأ يثير نفس جرول كلّما طفا رغم إرادته في ذاكرته ، كان يفكّر : إنّه مبالغ هوّال ، كذلك وجد فجأة أن الملابس التي كان أشنبرج يرتديها لا تعجبه ، وجد فيها شيئاً من الإسراف في التأنّق ، والطبقة الراقية ترتدي ملابسها على نحو آخر . ولكن تجارة أشنبرج بالمعادن كانت مذكورة في دفتر التليفون وكان لها ثلاث نمر ، بينما كان للبنك خط

واحد . ولكن هذا ليس معياراً . فعملاء البنك لا بدّ أن يذهبوا شخصيّاً إليه ، أمّا في تجارة المعادن فتشتري وتبيع تليفونيّاً ولا تنظر إلى البضاعة ولا إلى الناس . هذه هي الاختلافات التي تفرضها طبيعة القطاع في الحياة الاقتصاديّة ، ليست هناك قاعدة جامدة يحكم الإنسان على أساسها بصحة أو سلامة الأمور في كلّ جانب من جوانبها .

ومرّ عام تقريباً قبل أن يدخل أشنبرج قاعة البنك ، وفرع الجنوب . ولم يره جرول عندما دخل . كان ذلك قبل أن يغلق البنك أبوابه بنصف ساعة . كان جرول يجلس في الحجرة الصغيرة الخاصة به خلف قاعة الشبابيك ، لأن العملاء كان يندر حضورهم في هذا الوقت ، وراح يقرأ الخطابات التي سيصدرها البنك في المساء . وكان جرول في تلك اللحظة أبعد ما يكون عن التفكير في لقائه مع أشنبرج في الترام ، لذلك اندهش عندما دخل عليه الصبي يقول له إن شخصاً اسمه أشنبرج يودّ أن يتحدّث إلى مدير الفرع ، وإنّه ينتظر في القاعة . وسأل جرول : « من ؟ » ثمّ هبّ واقفاً ودفع الصبيّ جانباً وخرج .

وقال : « نهارك سعيد ، يا سيّد أشنبرج . يسعدني أنّك وفيت بما وعدتني به : فلا بدّ أنّك تذكر أنّك وعدتني بالزيارة عندما كنّا نتحدّث معاً منذ عام مضى ؟ أتسمح لي

بأن أرجوك أن تدخل ؟ » وفتح الباب الصغير المجاور لشبّاك القبض والدفع .

وقال أشنبرج : « لم يتغيّر هنا شيء في السنوات الثلاث الماضية ، وكأن الزمن سكن ولم يتقدّم هنا لحظة » .

وجلسا في المكتب الخاص .

وفكّر جرول : يظهر أن الزمن لم يتوقّف عنده . ها هوذا يبدأ حديث المبالغة والتهويل .

وأجاب : « إنّك تُصدر حكمك بناء على الظاهر . هذا ، وأنا ما زلت أذكر أنّك عندما التقينا أكدت على أهميّة الاقتصاد والحرص – وكذلك البنك يفكّر التفكير نفسه ، ولا يهتمّ بالأثاث الجديد والتعديلات الغالية التكاليف في المباني . ولكن هناك أشياء تغيّرت يا سيّد أشنبرج ، هذا ما يمكنك أن تصدقه – وسائل التعامل مثلاً وعدد العملاء » . وفكّر : لقد أعطيته إجابة مفعمة .

وسأل أشنبرج : « وكان هذا كلّه من فضلك وجهدك ؟ زيادة وسائل التعامل وعدد العملاء ؟ »

وفكّر جرول : إنّه يضع دائماً لمحة من التقدير المبالغ فيه في كلامه ، وبهذا يصبغ كلّ جملة يقولها بالسخرية ، والظاهر أن السخرية علامة مميزة لسمك القرش . ومن لم يكن له رئيس فوقه ، لا يحتاج إلى الجد مع الآخرين

فوق الحدّ .

وردّ : « طبعاً من فضلي أنا أيضاً » . وفتح درج المكتب وسأل الزائر وهو يقدّم إليه السيجار والسجائر : « هل تدخن ؟ » نعم ، كان أشنبرج يدخن ، وتناول سيجاراً .

وسأل : « وأنت ، ألا تدخن ؟ »

فردّ جرول : « لا . لا أجد في التدخين متعة » .

« أمّا أنا فأجد فيه للأسف متعة » .

« فلماذا لا تكفّ عن التدخين ما دام يضرّك ؟ »

« لأنّه يمنحني أيضاً شيئاً من المتعة » .

وفكّر جرول : لن أعود إلى الحديث عن حسابه ، فقد أخطأت في المرّة الماضية عندما تحدّثت عن ذلك فلا ينبغي أن يحسّ بأنّني أجري وراءه .

وسأل أشنبرج وهو يشير إلى الملف الموضوع على المكتب أمام جرول : « هل اطلعت على البريد ؟ إذا لم تكن قد فعلت ، فأرجوك أن تفعل حتّى تنهي الخطابات ، وسأظلّ ساكتاً ساكناً إلى أن تفرغ ، وستكون الفائدة من وراء ذلك ، أنّنا سنتحدّث دون إزعاج ، لأنّني أتيت لأتباحث معك في مسألة خاصة بالعمل ، ولا أُحبّ أن يأتي الشخص الذي أعلنك بحضوري أثناء حديثنا ويذكّرك بإنهاء البريد الصادر » .

وفكّر جرول : حتّى هنا يُصدر أوامره ، ثمّ من أين

له حقّ تسمية الصبيّ « شخصاً » ؟ إن هذه وقاحة . ولكنّه لم يعارض . بل مدّ يده إلى الملف وقلّب في أوراقه دون أن يظهر أنّه اغتاظ من كلام أشنبرج . ثمّ فتح الباب ونادى على الصبي وأعطاه الملف .

وعاد فجلس إلى المكتب .

وقال : « أعتقد أنّه لم يعد أمامك إزعاج تخافه ، ويصح الآن أن أرجوك أن تعرض عليّ العمل الذي شرّفني بحضورك ».

وأجاب أشنبرج : « أريد عشرين ألف مارك لمدّة أسبوعين . ولا يهمّني الربح الذي تطلبه » .

وأعاد جرول الكلمة : « عشرين ألف مارك ؟ لماذا ؟ »

فأجاب أشنبرج : « لأنّي أستطيع أن أشتري بها معادن أقلّ من سعر السوق بكثير ، من تفليسة أحد المصانع . ولكن مأمور التفليسة يريد الثمن نقداً . وأموالي النقديّة السائلة تشتغل في الأعمال السائرة . هذه إذن حالة خاصة » .

وسأل جرول : « لمدّة أسبوعين ؟ هل أنت متأكّد من أنّك ستستطيع تغطية الدين في فترة أسبوعين ؟ »

« هذا شيء لا شكّ فيه » .

« وما هي الضمانات التي تقدّمها ؟ »

« سأنقل ملكيّة الأشياء التي أشتريها بالقرض إليك ، ولما كنت سأشتري بالنقد فليس هناك أدنى خطر عليك

إطلاقاً » .

« قلت إن نسبة الربح لا تهمّك ؟ »

فردّ أشنبرج : « تقريباً . فأنا أتوقّع أن أبيع البضاعة بزيادة مائة في المائة ، فإذا كنت مستعدّاً للموافقة على نسبة خمسة عشر في المائة — خمسة عشر في المائة لمدّة أسبوعين — هذا أقرب إلى المشاركة في الربح منه إلى سعر قرض » .

وفكّر جرول .

وردّ : « لا أعتقد أن الإدارة ستوافق على العمليّة ، فليس لك حساب في البنك — وخمسة عشر في المائة لمدّة أسبوعين ، هذه نسبة خارج الحدود » .

وقاطع أشنبرج : « ليس اقتراحي هذا خاصّاً بالبنك على وجه التحديد . فإن إدارة البنك ستحتاج إلى وقت طويل لتقرير القبول أو الرفض أطول ممّا يصلح لعقد الصفقة الّتي أريد عقدها . كنت أعتقد أنّك قد تفكّر في الاشتراك معي أنت » .

وصاح جرول : « أنا ؟ وماذا حملك على التفكير في هذا ؟ أتظنّ أنّني رجل غني ؟ »

وردّ أشنبرج : « لا ، لم أعتقد أنّك تملك مبلغ العشرين ألف مارك ، ولكني فكّرت أنّك قد تستطيع أن تذكر لي عميلاً من عملاء البنك تعتقد أنّه مستعدّ للدخول معي

ولا شكّ أنّه سيعرف لك هذا الصنيع » .

وفكّر جرول : يا للسخف ، لو علمت إدارة البنك بأنّني أشجّع العملاء على سحب أموالهم لعقد صفقات مع أشنبرج ، لطردتني شرّ طردة . ولكن خمسة عشر في المائة – يعني ثلاثة آلاف مارك في أسبوعين – وخطرت السيّدة روتناجل بباله على الفور .

وسأل متردّداً : « هل الصفقة فعلاً بدون مخاطرة ؟ »

وهزّ أشنبرج كتفيه .

وسأل : « هل يبدو لك السعر عالياً ، هه ؟ ليست هناك مخاطرة ، إنّها صفقة ، إنّها فرصة لا تتاح إلاّ نادراً ، وأموالي مجمّدة » . وضحك : « لو استطعت أن أفكّ تجميد أموالي لما بحثت عن شريك ، صدّقني » .

وفكّر جرول .

فكّر : إنّه لن يصعب عليه تدبير مبلغ عشرين ألف مارك حتّى الغد ، يلزم لذلك بيع جزء من أسهم السيّدة روتناجل . وبعد أسبوعين يشتريها مرّة ثانية وفي نهاية الشهر أقدم للسيّدة روتناجل ثلاثة آلاف مارك أرباحاً .

وسأل أشنبرج : « أتعرف أحداً ؟ »

وردّ جرول : « ربّما . هناك حساب أديره لصاحبته ، ولي حقّ التصرّف به ، والعميلة نفسها لا تتدخل في أمره » .

فقال أشنبرج : « إذن فكلّ شيء على ما يرام » .

وردّ جرول قائلاً : « سيكون من اللازم أن نوقع معاً عقداً ، وأن أرى البضاعة بنفسي » .

وأومأ أشنبرج برأسه ونهض .

وقال : « إن شئت ، نذهب معاً إلى مأمور التفليسة ، فلديه مفاتيح القاعة التي بها المعدن ، ويمكننا أن نبرم الاتفاق عنده » .

وفكّر جرول : الإسراف في التأنّق والمبالغة ـ ما أسخف قولي القديم عنه . ونهض هو الآخر .

وردّ : « حسناً . نبرم الاتفاق » . وسُرّ لأنّه وجد الإجابة.

وتظاهر أشنبرج بأنّه لم يسمع شيئاً .

وقال : « سنركب عربتي فهي أمام البنك » .

فلمّا دخل جرول حجرته مساء ، كان يحمل العقد بإمضاء أشنبرج في جيبه . وفي اليوم التالي حوّل مبلغ العشرين ألف مارك إلى حساب مأمور التفليسة ـ وعندما وقّع على صك التحويل فكّر لحظة : ماذا أفعل لو كان في الصفقة فخ ؟ ثمّ فكّر : ليس هناك شاهد ، هوّال : نعم ، مدّع ، ولكنّه على أيّة حال : من سمك القرش ، ولو لم يفِ بالتزاماته فسيكلّفه ذلك رأسه وياقته كما يقولون ـ هل رأيت مرّة واحداً من سمك القرش بلا رأس وبلا ياقة ؟

ولم يسمع شيئاً عن أشنبرج حتى أتى اليوم الذي كان الدفع يحلّ فيه . فلمّا دخل المكتب صباحاً فكّر : إذا لم يدفع ، سأتصل به تليفونيّاً ، فإذا تحايل كلّفت المحامي بمقاضاته فوراً ، فلا ينبغي أن يلين الإنسان مع سمك القرش . فلمّا حلّ الظهر دخل أشنبرج فجأة قاعة البنك . وقال جرول : « ادخل ، تفضّل ، لقد كنت أنتظرك » .

وفي المكتب الخاص أخرج أشنبرج من حقيبته ربطتين وقال : « هذا هو رأس المال : عشرون ألف مارك . وهذا هو نصيب الربح : ثلاثة آلاف » .

وردّ جرول بعد أن عدّ المبلغ : « تمام » وأخرج العقد من الخزانة الفولاذيّة وأعاده إلى أشنبرج .

وسأل أشنبرج : « صفقة نظيفة ، هه ؟ »

وردّ جرول : « لا بدّ أن تكون كذلك ، هكذا تُعقد الصفقات » .

وابتسم أشنبرج .

وأجاب : « أنت تعجبني . أعتقد أنّك ذو كفاءة في هذه العمليات . إذا سنحت فرصة أخرى للتنقيب عن الذهب » .

وقاطعه جرول قائلاً : « فسأقرضك فأساً عن طيب خاطر » .

فلمّا انصرف أشنبرج أودع جرول عشرين ألف مارك

على حساب السيّدة روتناجل وأصدر تكليفاً بشراء الأسهم مرّة أخرى ، تلك الأسهم التي باعها منذ أسبوعين . وماذا يفعل بنصيب الربح ؟ فكر : لم يكن للسيدة روتناجل حقّ فيه ، هذا واضح ، فلو لم يظهر له أشنبرج ، لظلّت أسهمها لديها ، كما هي الآن . ومن الطبيعي أن يدفع لها المصاريف التي نشأت نتيجة بيع وشراء الأسهم للحصول على مبلغ العشرين ألف مارك نقداً . وحسب المصاريف فوجدها أكثر من مائتين وثلاثين ماركاً ، فزادها إلى مائتين وخمسين ، حوّلها إلى حساب السيدة . فمن يعقد صفقة طيّبة رابحة يمكنه أن يتوسع ويتكرّم دون أن يسمّى مبذراً . وخطر بباله أنّه فكّر في أثناء الزيارة الأولى لدى أشنبرج أن يحوّل الربح إلى حساب السيّدة روتناجل ، ولكن لا بدّ أن فكره هذا كان متعجّلاً ، فمن أين لها الحقّ فيه ؟ لا من الناحية الأخلاقيّة ، ولا من الناحية القانونيّة .

وسُرّ لأنّه اكتشف فجأة كيف يكتسب المال . كلّ ما في الأمر : أن يقف الإنسان بالشصّ في يده هناك حيث تسبح الأسماك الذهبيّة — هذا هو الفن ، ولا مجال للخوف من أسنان أسماك القرش ، لأن أسماك القرش مغطاة بفلوس من ذهب . أمّا إذا بقيت النقود ميتة ، فلا سبيل إلى الربح من ورائها . هذا ما يلاحظه الإنسان عندما ينظر إلى حالة

السيدة روتناجل : إنّها لا تعرف ما هو السمك ذو الفلوس الذهبيّة . إنّها لم ترها قط . بل إنّها لم تصل حتى إلى مجرّد الحصول على نسبة عشرة أو اثني عشر في المائة سنويّاً من رأس مالها ، فلمّا خطر لي أن أضعه تحت تصرّف أشنبرج مدّ فروعه في الأعشاب والأدغال وانطلق قويّاً ينتج أكثر من سبعة في المائة أسبوعيّاً . فضلي هو فضلي ، وليس فضلي فضل السيدة روتناجل .

وتبين جرول أن المال لا تكون له فائدة إلاّ إذا غيّر أسلوب حياة صاحبه ، ولم يسرف مع ذلك في تقدير قيمة المبلغ الذي فوجىء به على غير انتظار . كان المهم هو علاقته بما حاز عليه نتيجة لعمله ، وكانت أيضاً ثقته في العثور على نبع لا ينضب تقريباً لدخل إضافي ينساب بالمال إلى ما وراء حدود الضيق القديم الذي كان يعيش فيه . وقرّر أن يحوّل المكاسب التي يحصل عليها من الصفقات إلى أشياء قيّمة تشهد بأسلوب حياة الإنسان الحائز عليها : فكلّف الخياط بحياكة حلل جديدة ، واشترى قمصاناً حريريّة ، وأحذية حسب الموضة ، فمن لم يظهر بمظهر واحد من أهل الدنيا ، لم يكن منها . كذلك اشترى موتوسيكلاً لمشاويره في البلد ولرحلاته في آخر الأسبوع إلى الضواحي ، ولم تغطّ الأرباح التي حصل عليها من صفقة أشنبرج هذه المشتريات ، واضطرّ جرول إلى

التعدي على رأس مال السيّدة روتناجل واقتطاع مبلغ منه صغير دفعه إلى التاجر وكتب له بالباقي كمبيالات تحلّ أوقات تسديدها في بحر نصف العام التالي . ولم يقلق جرول من التعدي على أموال السيّدة روتناجل ولا من الالتزام بتسديد قيم الكمبيالات التي وقعها ، لأنّه كان واثقاً من أنّه سيغطي جميع التزاماته من أرباح الصيد القادم ، وفكّر أن الديون بالنسبة لرجل له إمكانياته شيء عابر . ولكن أشنبرج لم يظهر في الأسابيع التالية ، وحلّ موعد الكمبيالة الأولى من ثمن الموتوسيكل ، ولم يستطع تسديدها إلاّ بزيادة دينه المقتطع من أموال السيّدة روتناجل . وفكّر : إن هذا شيء لا أهميّة له بالنسبة إليها ، لأنّني سأردّه إليها مضافاً إليه الأرباح ، الأرباح بسعر عالٍ — لأنّني سأسمح لنفسي بالكرم والسعة في هذه الحالة .

وكان في الأيّام التي سبقت حلول الكمبيالة الأولى قد فكّر جديّاً في الاتصال بأشنبرج وعرض قروض عليه . وفكّر : ليس الرجل على درجة المرونة التي كنت أتصوّرها ، يبدو أنّه ليس من أسماك القرش ، وأنّه لا يعرف الإمكانيات التي تقدمها الحياة الاقتصاديّة ولا بدّ أن أشجعه . ثمّ فكّر : لعلّه يخجل من التقدّم إليّ مرّة أخرى ، أو لعلّه وجد من يعطيه أموالاً بسعر أرخص . وأقلقت الفكرة الأخيرة جرول

جداً ، وأخيراً قرّر أن يتصل بأشنبرج تليفونيـّاً .

وقال صوت نسائي في التليفون : « السيـّد أشنبرج في رحلة إلى الخارج » .

وسأل جرول : « هل تعلمين متى يعود ؟ »

« بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع . هل تحبّ أن أبلغه شيئاً ؟ »

هكذا ؟ بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع . لا ، ليس لديّ شيء أبلغه إيـّاه . في نهاية الأسبوع القادم يحلّ موعد تسديد الكمبيالة الثانية للموتوسيكل ، وليست هناك وسيلة أخرى سوى الالتجاء إلى أموال السيـّدة روتناجل ، وسرعان ما زحفت يده وكأنـّما زحفت على قطيفة ، وهو لا يتصوّر الهوّة التي لا قاع لها ويقول لنفسه إنّه سيعيد إليها بطبيعة الحال أموالها لا تنقص درهماً وعليها الأرباح وأرباح الأرباح ، كان قد تحوّل إلى واحد من أسماك القرش في سبيل النمو ، مستتراً في الظلام كما كان الرومان يقولون ، ومثله لا يعبأ بحال أو مستقبل .

وقال جرول : « لا ، لا ضرورة لإبلاغ السيـّد أشنبرج شيئاً . سأتصل به تليفونيـّاً مرّة أخرى بعد أسابيع » .

وأعاد سماعة التليفون . لماذا يسافر إلى الخارج ؟ وراح جرول يفكر : كأنـّما لم تعد هناك إمكانيـّة لعقد صفقات هنا . بل ابقَ هنا في البلد وكل بالحلال — ليس هناك شيء لأسماك

القرش أمثاله ؛ كان ينبغي لي أن أحصل على عنوانه لأكتب إليه بشأن عقد صفقة قادمة ـ فهو الذي أساء استغلال طيبتي وأيقظ فيّ آمالاً نائمة ، وكنت من قبل سعيداً راضياً . وليس من السعادة أن يختار الإنسان بين زوج من الكرفتات الجديدة ، وليس من السعادة أن يكون للإنسان موتوسيكل . السعادة في أن يكون الإنسان غبيّاً وفي أن يكون لديه عمل . وفكر جرول أنّه قرأ تلك الجملة في موضع ما . وهي صحيحة مثلها في الصحة مثل أي جملة أخرى ، أو هي صحيحة بنسبة النصف ، أو الربع ، أو لعلّها ليست صحيحة على الإطلاق . كلّ جملة فيها نصيب من الصحة بقدر ما يسمح الموقف ، لو علم الإنسان جملة ، تكون صحيحة في كلّ حالة وتحت كلّ ضوء ـ لسهلت الحياة عليه ، لأنّه سيكون عليه أن يتبعها فيتخلّص من القلق تماماً .

كانت السيّدة روتناجل تأتي منذ مدّة شهريّاً لتحصل على ما تحتاجه من مال ، وكان جرول قد اعتاد أن يسلمها المبلغ الذي كان يعرف أنّها تنتظر الحصول عليه بناء على ما كان يبلغها من أخبار استثمار أموالها . وهكذا اعتقد أنّه يستطيع أن يتحاشى عرض حسابها عليها . كان يعلم بطبيعة الحال أنّه يسلمها نقداً أكثر ممّا تسمح به أرباح أموالها ، وأنّه سيتحمّل يوماً ما الفرق الذي يتكوّن من أرباح عمليات

تعدّيه على رأس مالها والذي هو الثمن الحتمي للعمليات المسرفة التي قام بها ولإجراءات تغيير أسلوب حياته . ولم تفكر السيدة روتناجل في مطالبة جرول بتقرير عن طريقة إدارته لأموالها ، بل كانت في كلّ زيارة تقوم بها للبنك تعبر له عن امتنانها وعن اعتبارها إيّاه صاحب فضل عليها .

وقالت له ذات يوم : « أعتقد يا سيّد جرول أن ابني لو كان في قيد الحياة لما اهتمّ بأموري أكثر ممّا تفعل أنت » . وهزّ جرول رأسه وهو يبتسم مرتبكاً . حقيقة أنّه كان يسعى ويفعل جهده لينمي دخل السيّدة روتناجل ، ومع ذلك لم يكن من الممكن إنكار مديونيته لها في ذلك الوقت — على أنّه لم يكن من الصواب المبالغة في هذا ، لأن حياة التجارة تقوم على أساس مديونية الواحد للآخر ، بل ربّما قامت الحياة بصفة عامة على هذا الأساس . إسهام في القلق العام . مشكلة أخلاقيّة ؟ من يحمل الإثم في حالة الرسام الذي يسخر منه عصره ؟ المتأخرون الذين يدفعون في أقلّ من متر مربع من لوحاته ما يوازي ثمن هكتارات من الأرض ؟ وأغلب الديون لا يسدّد ، أوّلاً لا يكون لدى المدين مال ثمّ بعد ذلك لا يكون سبيل إلى العثور على صاحب الدين .

ونظرت السيّدة روتناجل برقّة إلى ارتباك جرول .

وقالت له : « إذا حدث ذات مرّة أن فوجئت بمفاجأة

سارة فلك أن تثق وأنت مرتاح الضمير في أنّك تستحقّها ، فأنت ابن الحظّ تسير ممسكاً بيده » .

وفكّر جرول بوقاحة : إنّها لا تكفّ عن هذه المشاعر المبالغ فيها . ما هذه الطيور جلابة الحظّ التي تعشش لديها ! وتمّم بكلمات مثل : إنّه يحتاج فعلاً إلى شيء من الحظّ . ومدّت السيّدة روتناجل يدها إليه ، وفكّر : أصابع من الخشب ، بسبب الشيخوخة . وانحنى انحناءة شديدة — وفكّر : إنّها لا تأمل في شيء ، فعندما تنتهي الحياة تكون الآمال قد ذبلت منذ مدّة طويلة .

ولم يأتِ أشنبرج إلاّ بعد أن كان جرول قد سدّد الكمبيالة الثانية للموتوسيكل من أموال السيدة روتناجل . فبينما كان جرول ذات صباح يقف وراء الشبّاك فتح أشنبرج الباب ودخل .

وقال : « نهارك سعيد » .

ولم يجد جرول على الفور كلاماً يردّ به . وفكّر : ها هي ذي المفاجأة السارة التي تمنتها لي السيّدة روتناجل .

وردّ : « نهارك سعيد يا سيّد أشنبرج . لم نرك منذ مدّة طويلة » . وفتح الباب الصغير الموصل إلى الحجرة وراء الشبّاك ، وسأل : « هل تريد أن نذهب إلى المكتب الخاص ؟ » وأومأ أشنبرج برأسه .

وقال : « كنت في الخارج لمدّة تزيد على شهرين » .

« لأعمال ؟ »

« نعم » .

« هل عقدت صفقات طيبة ؟ »

وهزّ أشنبرج كتفيه .

وقال : « ربّما . ولكن الحالة الاقتصاديّة ليست منتعشة بدرجة كبيرة . ولكن على أيّة حال ... » ولم يكمل الجملة .

وسأل جرول : « هل تحتاج إلى مال ؟ »

وأجاب أشنبرج : « لا . وقد أتيت في الحقيقة لأودعك » .

وهوت هذه الكلمات بجرول إلى الأرض . وأحسّ فجأة بأنّه علّق على ظهور أشنبرج أملاً مؤكّداً في عقد صفقة يمكّنه ربحه منها من تسديد ديونه — وأحسّ بالمشاكل التي تحيط به والتي كان أمله في حظّ مفاجىء يأتيه عن طريق مساعدة أشنبرج يواريها . وفكّر : ربّاه ، ربّاه ! واضطرب كلّ شيء في عينيه ، وكان عليه أن يضطر نفسه إلى عدم إظهار خيبته أمام أشنبرج .

وسأل : « ماذا تنوي الآن ؟ »

وردّ أشنبرج : « سأصفي الشركة » .

« لتستقرّ في الخارج ؟ »

وأومأ أشنبرج برأسه .

وأجاب : « في المكان الذي سأذهب إليه إمكانيات أفضل للعمل ، من حيث تصريحات الاستيراد والجمارك . وقد درست الوضع في الأسابيع الماضية دراسة مستفيضة » . وصمت برهة ثمّ عاد يقول : « وعليّ الآن أن أتمّم الأعمال التي بدأتها ، ولا أحتاج لذلك إلى مال ، بل على العكس فأنا أحصل منها على المال » .

وقال جرول : « نعم » . وفكّر : هل يرجو أشنبرج أن يقرضه قرضاً — في هذا الوقت الذي يحصل فيه على أموال ؟ ولكن من المحتمل أن يردّ أشنبرج بأنّه سيحتاج إليها سريعاً ليبدأ نشاطه في الخارج — ثمّ ربّما كان أشنبرج على علاقة بإدارة البنك وربّما حكى لها أنّها تستعين في فرع الجنوب برجل يستدين من زوّاره — برجل يمدّ يده إلى الخزينة . وسبّبت له الفكرة الأخيرة التي خطرت بباله ألماً كأنّه وخزة السلاح : ربّما كان ما سمّاه حتّى الآن قرضاً سريّاً من أموال السيّدة روتناجل ، مدّ يد إلى الخزينة ، ربّاه ، ربّاه ، فعل يؤدي إلى فصلي ثمّ إلى تقديمي إلى المحاكمة ، وسيقول الناس عني إنّني من سمك القرش ، شديد النشاط ، ولكن للأسف من أجل جيبي أوّلاً وقبل كلّ شيء آخر . وتذكّر أنّه قرأ هذه الجملة في تقرير صحفي عن قضيّة اختلاس ، وكانت الجملة على لسان النيابة .

وقال جرول بصوت مبحوح : « أتمنى لك يا سيّد أشنبرج حظّاً من النجاح كالذي نلته هنا » . رباه ، ربّاه ، كأن النهاية وشيكة .

فلمّا أوصل جرول أشنبرج إلى الباب عاد إلى المكتب الخاص وجلس إلى المكتب وأسند رأسه إلى يديه وفكّر : ينبغي أن يحدث شيء ، ولا ينبغي أن يضيع أيّ شيء ، فلنحسب الحساب ولنشمل الموضوع بنظرة ونفحص الموقف . وتناول قلماً وورقاً : هذا هو المبلغ الذي نقصه حساب السيّدة روتناجل ، وهذه هي ديوني — لو ضيّقت على نفسي وضغطت مصروفاتي أمكنني أن أسدّدها كلّها من مرتبي ، ولكن في أيّة مدّة ؟ على الأقلّ في مدّة عام أو ربّما عامين ، وحتى لو بعت الموتوسيكل ، وعلى الرغم من أن مرتبي قد زاد — لأنّني غيرت طريقة حياتي ولا أستطيع الرجوع على أعقابي . لو لم أكن قد اتخذت مسكناً غالي الإيجار ! ولكن لا يهمّني أن يستمرّ الأمر عاماً أو عامين — ستطالب السيدة روتناجل بتقرير عن أموالها وأسهمها على أبعد تقدير عند نهاية العام ، أي في مدى أربعة أشهر ، أربعة أو خمسة .

كذلك يمكنني أن أذهب إليها وأقول لها عمّا فعلت ، لا ، لا عما فعلت ، بل أقول عمّا حدث ، وربّما وافقت وقبلت ألاّ يصبح الأمر علنيّاً لأنّي أشبه ابنها وأذكّرها به .

وأحاسيس بعض الناس لها في بعض الأحيان قيمة النقود — ويمكنني أن أعطيها ورقة عليّ بالدين ثمّ أردّ إليها المطلوب على أقساط ببطء كلّ شهر قسط ، مضافاً إليه الأرباح ، وأقول لها : لا ينبغي أن تتحمّلي أيّة خسارة من أجلي ، كلّ ما حدث عبارة عن خطإ في التقدير وهو شيء يحدث في عالم المال والتجارة .

ولكن أمله ما لبث أن بهت : خطأ في التقدير ؟ وفكّر : إنّها ليست من البساطة بحيث تصدق أن خطأ في التقدير حدث دون أن يكون له مجال . وستطالب الإدارة على الأقلّ بفحص الحسابات التي قمت بها ويضيع عليّ كلّ مخرج . ليس هناك مخرج . لا ، بل هناك مخرج ، وهو أن أذهب إلى الإدارة وأبلغها ما فعلت ، ما فعلت لا ما حدث ، ولكن هذا لن يكون مخرجاً ، بل سيكون النهاية .

وفجأة هدأ تماماً — فكّر : إن القدر يتجه إليّ وقد عزم على ابتلائي . وخطرت بباله قصة كان قد قرأها صبيّاً : عن رجل سار فوق جسر للسكك الحديديّة ، جسر طويل يعبر نهراً ، ولم يكن له حاجز ، وكان هذا الجسر ضيّقاً حتّى إن السائر فوقه إذا أتى قطار لا بدّ أن يدهمه ، إلاّ إذا تجرّأ وقفز إلى النهر ، وكان الجسر عالياً بينه وبين النهر أمتار عديدة ، وكان النهر مملوءاً بالتماسيح . كان الرجل في هذه

القصّة عندما سار فوق الجسر يعلم أن قطاراً لن يأتي في هذه الساعة ، لأنّه كان يعرف مواعيد القطارات ، ولم يكن هناك سبب يدفعه إلى الخوف . فلمّا سار مدّة ، سمع قطاراً ، قطار بضاعة أطلقوه خارج الخطّة ، واقترب القطار بسرعة هائلة من الرجل ، بسرعة لم تكن تدع من الممكن أن يعود إلى العمود الأوّل للجسر ولا أن يهرب إلى الناحية الأخرى . ولهذا بقي الرجل في مكانه وخلع ملابسه وحذاءه ولوّح بالقميص ولكنّه تبيّن أن من في القاطرة لا ينظرون إليه ، فقفز إلى الأعماق قبل أن يصل إليه القطار . وكان من حسن حظّه أنّه لم يصب بسوء أثناء القفز ولم يقع فريسة للتماسيح . وفكّر جرول : لا بدّ أن أقامر ، ومن الممكن أن أخسر طبعاً ، ولكن هذا سيعني النهاية ولست أتوقّع غيرها إذا لم أقامر . أمّا إذا ربحت — فإن التماسيح لا تعضّ كلّ من تلقاه .

وفي ذلك اليوم سحب من حساب السيّدة روتناجل عشرة آلاف مارك وسافر مساء إلى كازينو قمار في مكان للاستجمام على بعد ساعة بالقطار من المدينة . وفكّر : سأغطي الخسارة ، وعندما يصل ما أكسبه إلى ما يكفي لتغطية العجز ، سأتوقّف عن اللعب بكلّ تأكيد — فأنا نادم ولهذا ستمرّ الكأس عليّ وتتجاوزني فالله يحبّ أن يعين النادمين . وأخذ

يلعب في تروٍّ وتؤدة ، وكان أحياناً يوشك على الكسب ، ولكنّه ظلّ يخسر ، وظلّ ينتزع النقود من جيبه المرّة بعد الأخرى . فلمّا أصبحت الساعة الثانية صباحاً نهض وفكّر : من الخير أن لديّ تذكرة للعودة ، ولكن هل ينبغي أن أعود ؟

وعاد بطبيعة الحال . ولم يفقد الأمل . فليس هناك من يفقد الأمل . وفي اليوم التالي ذهب إلى البنك محطماً بعض الشيء من الليلة التي قضاها في المقامرة ، وكان كلّما نظر في المرآة رأى أن سواداً يحيط بعينيه . وخطرت بباله قصة أخرى ، أكثر إثارة من قصة الرجل الذي قفز إلى باطن النهر ، كانت أيضاً من ذكرياته أيام الصغر — لماذا يزحف كلّ شيء من داخل نفسه الآن إلى الخارج ؟ كانت القصة تحكي عن شخص دخل عنوة إلى قصر من القصور إمّا بسبب الحرب أو ليخلص عذراء من الحبس ، المهم أن القصر كانت حوله قناة وكان هناك قسطل يصل بين القناة في الخارج وبركة في الداخل ، وكان الرجل يعرف مصبّ القسطل في الخارج ، وكان القسطل من السعة بحيث يستطيع السابح أن ينفذ فيه ، ولكن الرجل لم يكن يعرف طول القسطل ولم يكن يعرف هل وضعت عليه شبكة من الداخل تسده أم لا . ومع ذلك سبح الرجل إلى نجاح أو فشل ، وأتت لحظة أيقن فيها أنّه لن يستطيع العودة لأن

نَفَسَه لن يكفيه وتمنى أن يكون قد قطع نصف المسافة وألاّ تكون النهاية مقفلة بشبكة . وفكّر جرول : لا بدّ أن أستمرّ في اللعب ، ولكن ليس اليوم أو غداً ، لا بدّ أن أتغلّب أوّلاً على انفعالي نتيجة الخسارة ، ربّما في نهاية الأسبوع ، آخذ عشرة آلاف مارك أخرى فإذا خسرتّها أخذت في الأسبوع التالي الباقي . ثمّ فكّر : لم أعدم الحيلة ، ولن أفقد أعصابي إذا فقدت العشرة آلاف مارك التالية .

ولكن الأمور سارت على نحو آخر غير الذي كان ينتويه ، ففي اليوم التالي انفتح الباب ودخل رجل .

وقال الرجل : « أنا اسمي فايجند . هل أنت السيّد جرول ؟ »

وردّ جرول : « نعم » .

وقال الرجل : « لقد أتيت بتكليف من الإدارة لأراجع أعمالك في إدارة الفرع » .

وفكّر جرول : إنّها المراجعة العادية على حسابات الفرع .

وقال : « تفضّل بالدخول » . وقاد فايجند إلى المكتب الخاص واستأنف كلامه : « أنا لا أعرفك . هل لديك بطاقة تحقيق الشخصيّة ؟ »

ومدّ فايجند يده في حقيبته .

وأجاب : « ها هي ذي ــ لقد نُقلت إلى هذه المدينة منذ وقت قصير » .

وقرأ جرول ما بالبطاقة من أوّله إلى آخره ــ تمام ــ وأعادها .

وقال موضحاً : « قل لي عمّا تريد أن تراه ، وكلّ شيء تحت أمرك » .

وظلّ السيّد فايجند يعمل طوال النهار في المكتب الخاص ، فلمّا اقترب المساء استدعى جرول إليه .

وسأل : « هل أنت موكل بالتصرّف في حساب السيّدة روتناجل ؟ »

وأجاب جرول : « نعم . هل تحبّ أن ترى التوكيل ؟ »

وردّ فايجند : « لا ، شكراً . فقد كان مع الأوراق التي فحصتها وقد فحصته أيضاً » . وسكت برهة .

واستأنف : « السيّدة روتناجل تسحب بانتظام مبالغ صغيرة » .

وأكمل جرول : « شهريّاً ، تسحب ما تحتاج إليه لمعيشتها . وكانت فيما مضى تأتي مرّة كلّ ثلاثة أشهر » .

وقال فايجند : « وتوقع الإيصالات بنفسها » .

وأومأ جرول برأسه .

وقال فايجند : « ولكن هناك مبلغ كبير سُحب منذ

عدّة أيّام . عشرة آلاف مارك . والإيصال الخاص بهذا المبلغ لا يحمل توقيع السيّدة روتناجل » .

وفكّر جرول : هناك إذن شبكة تسد منفذ القسطل . ولكن نَفَسي لم ينقطع بعد .

وقاطع الآخر قائلاً : « لا ، لقد احتاجت السيّدة روتناجل إلى المبلغ لأنّها تشتري قطعة من الأرض ولم يكن لديها وقت للحضور بنفسها . ولذلك رجتني أن أحمله إليها » .

وانتظر جرول ولكنّه ظلّ مثبتاً بصره على فايجند : « وهكذا فالعمليّة صحيحة يغطيها توقيعي ، أليس كذلك ؟ »

وأومأ المراجع برأسه في تردّد .

وأجاب : « هذا صحيح ، ولكنّه من صالحك أن تحصل على توقيع السيّدة روتناجل بتسلُّم المبلغ » .

وقال جرول : « لم أرَ ضرورة ملحّة في ذلك لأن السيّدة روتناجل سليمة الذمة ولا يمكن أن تدّعي أنّها لم تتسلّم المبلغ » .

وأجاب فايجند : « هذا شيء أصدقك فيه ، ولكن من الممكن أن تموت السيّدة روتناجل — وتصور لو أن ورثتها قالوا إنّك اختلست المبلغ ؟ »

وابتسم جرول في سخرية .

وقال : « في هذه الحالة سيكون من الممكن البرهان على

أنّها سحبت المبلغ بدليل شرائها قطعة الأرض » .

وأجاب فايجند : « لم أُرد إلاّ أن أُسدي إليك نصحاً . أمّا البنك فوضعه سليم بوجود التوكيل الذي عملته السيّدة روتناجل لك » .

ونهض .

وسأل جرول : « هل يمكنك أن تقول لي هل وجدت في مراجعتك شيئاً قد ترى فيه الإدارة تقصيراً مني في تسيير أعمال الفرع ؟ »

وهزّ المراجع رأسه .

وأجاب : « لا أتردّد في التصريح لك بأنّني لا أجد شيئاً يستدعي النقد » . ومدّ يده لمصافحته وانصرف .

وفكّر جرول عندما انصرف المراجع : أيّها الكلب المنافق ! تريد أن تجعلني أُخلد إلى الطمأنينة — وستحكي للإدارة بطبيعة الحال أنّني سحبت عشرة آلاف مارك من حساب روتناجل . وربّما سألت الإدارة السيّدة روتناجل عن مدى صحة الواقعة التي حكيتها للكلب الشمّام — لا ، أوّلاً ستطالبني الإدارة بتقديم إيصال من السيّدة روتناجل بالمبلغ ، والبنك يفضّل عدم إزعاج العملاء ما كان إلى ذلك سبيل . على أيّة حال ، فهذه الأمور كلّها تستوي بالنسبة إليّ ، فأنا في قلب القسطل سواء فعلوا هذا أو ذاك من

الإجراءات ، ولا أعلم هل نهاية القسطل مفتوحة أم مسدودة بموصدة .

وخطر بباله وهو في الطريق إلى البيت أنّه ينبغي له أن يتروّى في تقرير شيء . وفكّر : إن الإدارة سريعة في عملها وربّما اتصلت بي تلفونيّاً غداً وطالبتني بتقديم إيصال موقع من السيدة روتناجل بتسلّمها المبلغ وإلاّ اتصلت الإدارة بالسيدة مباشرة . وهذا الاتصال المباشر محتمل جدّاً . يمكن أن يكتب البنك إليها : السيّدة المحترمة — بعد التحيّة — سلّمك فرع الجنوب في . . . مبلغاً قدره . . . ونرجو سيادتك أن تتكرّمي بتوقيع الإيصال المرفق . . . وهو إجراء شكلي بحت . . . طبعاً ستقوم الإدارة بهذا ، لأن الكلب المنافق تشكّك على الفور في أنّني ربّما اختلست المبلغ — ألم يستعمل هو بنفسه هذه الكلمة ؟ صحيح أنّه استعملها على سبيل افتراض فرض ، ولكنّه كشف بذلك عمّا يخفيه في ضميره .

وأنا لم أختلس شيئاً . ثمّ ما معنى الاختلاس ؟ إن ما أعمله لا يزيد ولا ينقص عن أن يكون محاولة للمحافظة على أموال السيدة روتناجل وتسوية العجز الذي طرأ عليها — أم هل ينبغي لي أن أقول لها : لقد نقصت أموالك فانزعجي ؟ لقد استأمنتني على حسابها ، ولقد قلت لها آنذاك على الفور إن من يضارب قد يخسر وأرجو ألاّ توجهي إليّ اللوم يا سيدتي

الكريمة . وأنا أقامر الآن حتّى أغطّي المبلغ الناقص والمقامرة ليست إلاّ مضاربة ، وهكذا تسير الأمور وكأنّها تنزلق على القطيفة ، لقد أصبحنا في قلب البحيرة ونعرف ذلك للأسف .

وفي اليوم التالي سحب المبلغ المتبقّي في حساب السيّدة روتناجل وفكّر : ليس لديّ وقت حتّى الأسبوع القادم ، لأنّهم لن يتركوا لي وقتاً ، لا بدّ أن يقضى في الأمر اليوم . فإذا ربحت ذهبت غداً إليها وقلت لها : ربّما يأتي خطاب من الإدارة بخصوص عشرة آلاف مارك فسلّميه إليّ حتّى أردّ عليه ، ويكون كلّ شيء على ما يرام .

ثمّ تابع التفكير : أمّا إذا لم أربح ، أمّا إذا خسرت بقيّة المبلغ ، ربّاه ، ربّاه ، الشبكة الّتي توصد المنفذ ، النهر ذو التماسيح ، لا أفكّر في أن أقف أمام المحكمة . لا أفكّر في ذلك ، لا أفكّر في ذلك ، ربّاه . ربّاه ، أيّها الربّ الحبيب .

وتابع التفكير : لقد تأخر الوقت للرب الحبيب ، ولكن الفرصة لم تضع ، لا ، لم تضع ، يمكنني أن أدعوه — إنّه هناك دائماً يقبل دعوة الآثمين . إذن : فأنا آثم يا ربّي ، أعترف بهذا ، كلّنا آثمون وأنا كذلك ، وليس في هذا غرابة ، فلن يكون لك بنا شأن إذا كنّا بغير إثم . لقد أردت أنت

أن نكون مذنبين ولقد حقّقت أنا إرادتك . ولكني لن أذهب لهذا السبب إلى المحكمة ، فأنا لا أحتمل أن يقاضيني آثمون آخرون ويدينوني . ولقد حرّمت علينا أن ينهي أحدنا حياته برغبته ، إنّك تريد أن نعيش في الذنب ، حتى ترى أنّه قد كفى . لهذا أدعوك : إذا كنت تقبل أن أبقى في الذنب حتى أمام الناس ، أمام الآثمين الآخرين ، فلن أرعى أمرك هذا ، سأرمي إليك حياتي التافهة فافعل بها ما تشاء . سأنزل من القطار الآن لأنّها المحطّة الأخيرة . هذا إكراه . وفكّر جرول : لو استمع إلى دعائي فإنّه يعلم أنّني مصمّم على أن أعطيه الباقي . هل أنا فعلاً مصمّم ؟ نعم أنا مصمّم .

كانت الساعة بعد التاسعة بقليل عندما بدأ جرول يلعب القمار ، وفي الساعة الحادية عشرة كان ما ربحه يبلغ ستة آلاف مارك . وفكّر في التوقّف عن المقامرة ومحاولة استدانة الباقي — لا يمكن ، فممن يستدين ؟ كذلك كان الوقت يضغط عليه ، غداً أو ربّما بعد غد تتلقّى السيدة روتناجل خطاب الإدارة — واستمرّ في اللعب ، وكان بعد منتصف الليل بقليل لا يمتلك سوى ثلاثمائة مارك فقط .

وفكّر : لقد حانت النهاية ، وذهب إلى القاعة ، إنّها النهاية فعلاً ، ربّاه ، لقد قلت لك ما سأفعل ولكنّك لم تنصت إليّ ، أو ربّما لا تعبأ بي . أو لعلّك تريد إذلالي :

ولكني لست من الجبن بحيث أقبل الإذلال .

وراح يقطع القاعة جيئة وذهاباً . وأقبل عليه رجل مُسنّ خارجاً من قاعة الطعام .

وسأله : هل خسرت أنت أيضاً ؟

وأومأ جرول برأسه .

وردّ الرجل : « هذا ما يدهشني » .

« لماذا ؟ »

« لأنّه يبدو عليك أنّك لا بدّ أن تكسب ، ليس دائماً ، لكن اليوم » .

وابتسم جرول ساخراً وفكّر : المسنون أقرب الناس إلى تصديق الخرافات .

وسأله : « هل ترى ما يشبه ذلك على أوجه الناس ؟ »

وردّ الرجل جادّاً : « نعم . هو ذاك . أنا أرى على أوجه الناس هذا ، فإذا كان لديهم بقيّة من مال عادوا إلى اللعب » .

وفكّر جرول في أنّه ما زال يمتلك ثلاثمائة مارك ، ولكنّه أحسّ فجأة بأن الرجل ثقيل على نفسه .

وقال : « لم يعد لديّ مال » .

وردّ الرجل : « أحسن » . وأخرج من جيبه ورقة من فئة الخمسين ماركاً وقدّمها إلى جرول ، وقال : « خذ ،

العب عليها . فليس هناك شيء يسهل به الكسب أكثر من أموال الآخرين » .

وفكّر جرول : لقد لعبت بمال الآخرين ولكني خسرت وخسرت . وتناول جرول الورقة وطبقها .

وسأل : « ألعب على أيّ نمرة ؟ »

ونظر الرجل إليه غاضباً .

وردّ عليه : « لو رددتُ على سؤالك لفقدت الورقة مفعولها » .

وقال جرول : « معذرة ، فلم أكن أعرف هذا » .

وقال الرجل : « ويمكنك أن تردّ إليّ الورقة بعد أن تكسب ، فإذا حدث وخسرت — لا ، لن تخسر » .

وعاد جرول إلى صالة اللعب ونظر دقائق إلى الكرة ثمّ رمى الورقة ذات الخمسين ماركاً على رقم سبعة ، وبعد قليل دفع إليه رئيس مائدة القمار الربح ففكّر : « ستّة وثلاثون ضعفاً » .

وقال جرول : « سألعب بالمبلغ كلّه » . وكان صوته مبحوحاً غير واضح .

وسأل رئيس مائدة القمار : « المبلغ كلّه على رقم سبعة ؟ »

« نعم » .

ودارت الكرة من جديد وأحسّ جرول بأن يديه مبلّلتان .

وفكّر : ستقف الكرة على رقم سبعة مرّة أخرى ، مرّة أخرى ستقف على رقم سبعة . هذه المرّة .

وقال رئيس مائدة اللعب : « سبعة . ستة وثلاثون ضعفاً » .

وقال جرول : « نعم » . وجذب الأموال إليه ، وفكّر : إنّها أكثر ممّا كان في حساب السيّدة روتناجل ، أكثر بكثير ، ولكنه لم يكن في وضع يمكنه من العد لمعرفة المبلغ الذي ربحه — وفي القاعة الخارجيّة كان رجل في حلّة سموكنج يقطع المكان جيئة وذهاباً ، وأخرج جرول عدّة ورقات من جيبه ودسّها في يد الرجل .

وقال الرجل : « خمسون ماركاً فقط . لم أسلفك سوى خمسين ماركاً » .

وردّ جرول : « دع هذا الكلام ، خذ المبلغ » . وترك النادي كأنّه هارب .

وفكّر : هذا هو الخلاص ، هَمٌّ آناء الليل وأطراف النهار ، وفي النهاية قفزة إلى النهر ، انظر : التماسيح لا تعض .

كان الوقت صباحاً مبكراً عندما دخل حجرته . كانت السماء لا تزال مظلمة ، ولكن الشمس كانت ستشرق في ذلك اليوم بعد الساعة الخامسة بقليل ، شمس مبكرة ، ودقّت ساعة الكنيسة ثلاث دقّات . وأحسّ جرول كيف التهمه

انفعال الساعات الأخيرة . وفكّر : يوماً آخر بعينين وارمتين ، ولكن قلبي عاد إلى صفائه ، ولا ينبغي أن يسكنه سوى . . . فإن الآثام التي لا تُكتشف لا تدنّس . ووضع إناء به ماء على موقد الغاز بمطبخ صاحبة الحجرة ، القهوة تقتل النوم ولكني على أيّة حال لن أستطيع النوم الآن . ثمّ عاد إلى حجرته وعدّ النقود وهو يخرجها من جيبه تباعاً : ستة وسبعون ألف مارك . وفكّر : لا شأن لها بالربّ وبدعاء الإكراه الذي دعوته . لأنّه إذا لم يكن موجوداً ، لا يمكن أن يكون قد سمع كلامي ؛ أمّا إذا كان موجوداً وكان قد سمع كلامي فإنّه يعلم أنّني ما كنت سأنتحر إذا كنت خرجت من النادي بدون مال — فلماذا كنت أفعل ؟ ثمّ فكّر : كان كلامي مبالغة سخيفة ، فليس من المقبول طبعاً أن أقف أمام قضاة لم يفعلوا قطّ شيئاً مثل ما فعلت ، وأنظر إليهم وهم يهزّون رؤوسهم حاكمين على أنفسهم ، ثمّ إذا أرسلوني إلى السجن — كنت دائماً أحسّ بالقرف عندما أفكّر بمرحاض يكون في نفس الحجرة ، وهذا هو بلا شكّ أسوأ شيء في السجون . ولكن هل هذا من السوء بحيث كنت آخذ حبلاً وأذهب إلى غابة لأشنق نفسي على فرع شجرة بها ؟ لا شكّ أن هذا كلّه سخف ، ماذا حملني على التفكير في هذا ؟ الرجل الذي كان يسير على الجسر — لكن مسألته كانت مسألة حياة أو

موت ، لو لم يقفز لدهمه القطار ، ولذلك قفز . أمّا أنا فلم أكن مضطرّاً إلى القفز ، كنت أستطيع أن أظلّ واقفاً ، فيما مضى ، في العصر الوسيط ، كنت أُعاقَب ربّما بالتعذيب على العجلة ، فقد كان الناس آنذاك يفكرون في جرائم الملكيّة على نحو أشدّ عنفاً من تفكيرنا نحن اليوم في النهب والقتل ، وهذه أشياء تظلّ عالقة بالإنسان لا تفارقه عبر الأجيال : هذا الخوف المبالغ فيه من الذنب . إذا كان الإنسان قد وقع فريسة لهذا الخوف فإنّه يرى كلّ شيء بعيني الذبابة ، يرى الكوم الصغير جبلاً شامخاً ، ثمّ بعد ذلك تعود النِّسَب إلى طبيعتها ويكون الانفعال بلا سبب ، ويكون المنظر الذي تصوره الإنسان رؤية خدّاعة .

وأفاق تماماً عندما شرب الفنجان الثالث ــ وفكّر : غداً سيكون من الضروري أن أتكلّم مع السيّدة روتناجل بشأن الخطاب الذي ربّما تكون الإدارة قد أرسلته إليها . فإذا قالت السيّدة روتناجل ردّاً على ذلك إنّها لا تعلم شيئاً عن العشرة آلاف مارك الأولى التي سحبتها فسيأتي ــ ما اسمه ، هذا الكلب المنافق ؟ وفكّر : كان اسمه فايجند ــ نعم ، سيعود مرّة ثانية ويفحص الحساب ويسألني : وماذا فعلت ببقية الحساب التي سحبتها بعد بضعة أيّام لمدّة ليلة واحدة ؟ هل اشتريت بها أيضاً قطعاً من الأرض ؟ وفكّر جرول :

لا شكّ أن هذا أمر ليس له أهميّة قاطعة كأنّه الاشتباكات التي تشتبكها الصفوف الأخيرة من الجيش بعد انتهاء المعركة ، ولكن الأفضل أن أتفق مع السيّدة روتناجل على شيء واحد نقوله – لماذا لا تقول إنّها طلبت مني أن أسحب أموالها كلّها إذا أعطيتها الربح ؟ سأعطيها ستّة وعشرين ألف مارك . ستقول كلّ ما أريد عندما تعلم أنّني ربحت لها وأن مبلغ الأربعة وعشرين ألفاً قد أصبح ستة وعشرين ألف مارك . هذا بالإضافة إلى ما تسحبه شهريّاً .

وملأ فنجان القهوة من جديد .

وفكّر : ستّة وعشرون ألف مارك ، هذا يعني أنّها ربحت ستين في المائة . وفي أيّة مدّة ؟ في مدّة عدّة أشهر قلائل – يعني أكثر من مائة في المائة في السنة . هذا كسب لم تحسب له حساباً ، هذا كسب يفوق كلّ توقعاتها ، خمسة عشر في المائة في العام سعر جميل ، يساوي سبعة ونصفاً في ستة أشهر أو ثلاثة آلاف مارك بالنسبة لمبلغ الأربعين ألف مارك التي تملكها السيّدة الكريمة . ولكني لا أُحبّ الدناءة . سأقول لها : هذه هي أربعة آلاف مارك يا سيّدتي الكريمة ، لقد قمت بعمليّة موفّقة ، وهذا هو الربح ، ولا تسأليني عن نوع العمليّة ، كلّ ما في الأمر أنّني سحبت أموالك كلّها في مدّة ثلاثة أيّام ، والآن سأردّها من جديد ،

وإذا سألتك إدارة البنك فقولي إن ما حدث ، حدث بموافقتك – لأن الإدارة لا تحبّ أن يقوم موظفو البنك بمثل هذه العمليات .

وفكّر جرول : عندما أُودع على حسابها مبلغ أربعة وأربعين ألف مارك يبقى لديّ اثنان وعشرون ألفاً . من الممكن أن يقال إنّني لست صاحب حقّ في هذا المبلغ لأن المال مال السيّدة روتناجل وقد قامرت به – ولو كنت خسرت ، لكانت هي التي خسرت ولست أنا ، ولكني أنا ، أنا الذي كنت سأقدم إلى المحاكمة ، وسيُزجّ بي في السجن ، وليست السيدة روتناجل ، يعني المجازفة كانت مجازفتي – لا ، بهذه الطريقة لا أصِلُ إلى ما أريد ، فالمسألة في الحقيقة ليست مسألة قانونيّة ، بل هي مسألة أخلاقيّة ، والمسائل الأخلاقيّة أصعب في الحلّ من المسائل الرياضيّة خاصة في هذا العصر المختل ؛ ربّما كنت خنزيراً خسيساً إذا احتفظت بمبلغ الاثنين وعشرين ألف مارك ، ولكن من لا يعلم أنّني احتفظت به لنفسي لن يعرف أنّني خنزير خسيس . ليس هكذا .

وقرّر أن يذهب إلى السيّدة روتناجل في الساعة الثامنة . ومرّ وهو في الطريق إليها بفرع البنك وقال إنّه سيقوم بمشوار يعود منه بعد ساعة تقريباً ، أو ربّما بعد نصف ساعة ،

وفكّر : فسأركب تاكسي ، مصاريف انتقال ، فأموالي تسمح لي بهذا .

وقال لسائق التاكسي : « يمكنك أن تنتظرني إذا شئت ، فسأعود إليك بعد أقلّ من عشر دقائق » .

وقال السائق وهو يومىء برأسه : « نعم » .

وذهب جرول إلى البيت وصعد السلّم . كان ساعي البريد يقف أمام الباب بالدور الأوّل ، بعد أن دقّ الجرس ، انتظاراً لأن يفتح له . وفكّر جرول : إنّه يحمل خطاب الإدارة . وقرّر شيئاً بسرعة والتفت إلى الرجل وقال : « إذا كان لديك شيء للسيّدة روتناجل هاته وأنا أحمله عنك إليها فأنا ذاهب إليها » .

وبحث الرجل في حقيبته الجلديّة .

وأجاب : « هذا خطاب لها . إذا تكرّمت » .

وأخذ جرول الخطاب دون أن ينظر إليه ، ولم ينظر إليه إلاّ بعد أن وصل إلى الدور التالي . وفكّر : إنّه من الإدارة كما توقّعت ، فالإدارة لا تثق بأحد ، وكيف لها أن تثق بالناس ، والشكّ أساس معرفة الناس وأساس العمليات المالية ؟ ولكنكم تصلون إليّ متأخرين يا أبطال . صحيح أن الدنيا كانت قد أفلتت من قبضتي شيئاً ما ، ولكنّها عادت إليها مرّة ثانية منذ ساعات ، بفضل ترتيب كريم من الله . ودسّ

الخطاب في جيبه ثمّ دقّ جرس مسكن السيّدة روتناجل . وانتظر ، ولكن الهدوء ظلّ كاملاً وراء الباب الزجاجي . وفكّر جرول : لعلّها لم تسمعني ، أو لعلّها ما زالت في الفراش ، أو ربّما كانت في مكان آخر ـ لا بدّ أن أترك لها ورقة لتتصل بي تلفونيّاً ، هذا إذا لم تفتح . وانتظر دقيقة أخرى ثمّ دقّ الجرس من جديد ، أشدّ وأطول من المرّة الأولى ، وبعد أن خيّم السكون مرّة أخرى وراء الباب ، سمع صوت فتح أو قفل باب ثمّ سمع خطوات زاحفة عبر الدهليز ـ وفكر جرول : إنّها إذن في البيت ، كلّ ما في الأمر أنّها لم تسمعني في المرّة الأولى . ولكن من فتح الباب لم يكن السيّدة روتناجل ، إنّما أطلّ من الباب وجه غريب لامرأة متقدّمة في السنّ .

وقال جرول : « أريد أن أتحدّث إلى السيدة روتناجل . هل هي موجودة ؟ أنا من البنك » .

وهزّت المرأة رأسها .

وردّت : « السيدة روتناجل ماتت ، منذ أربع أو خمس ساعات . وما زال الطبيب هنا من أجل شهادة الوفاة » .

وقال جرول : « ربّاه . كيف حدث هذا ؟ لا بدّ أنّه حدث فجأة ، هكذا . هل كانت مريضة ؟ لم أسمع أنّها كانت مريضة » .

وردّت المرأة : « لا . لم تكن مريضة . ولكنها بالأمس أحسّت أنّها ليست بخير فأتت إليّ ، فأنا أسكن هنا في البيت نفسه ، وقد سبق لي أن ساعدتها من قبل ، أعني أنّني مثلاً كنت أُحضر لها معي ما كانت تحتاج إليه ، لأنّها لم تكن تحسن السير على قدميها بسبب تقدّمها في السنّ » .

وسكتت المرأة . فقد انقطع حبل تفكيرها .

ثمّ قالت بعد فترة : « هذا شيء فظيع » .

وسأل جرول : « ماذا حدث أمس ؟ »

فقالت المرأة : « نعم . لقد أتت إليّ ، ورجتني أن أُحضر لها الطبيب لأنّها ليست بخير ، فقد أحسّت بوخز في الصدر وفي القلب . وأتى الطبيب على الفور وأعطاها حقنة ، وسألني هل أستطيع أن أنام في مسكن السيّدة روتناجل ، حتّى أتصل به إذا أصيبت السيّدة روتناجل بأزمة . فقلت له : نعم ، طبعاً ، وأعددت لي مكاناً للنوم على الأريكة وتركت باب حجرة نوم السيّدة روتناجل مفتوحاً . ولكن كلّ شيء ظلّ طوال الليل هادئاً ، ونمت أنا . فلمّا استيقظت من النوم ، ذهبت إلى فراشها ، فوجدتها راقدة هادئة لا تتحرّك ولا تتنفّس ، فلمست ذراعها فوجدتها باردة . فارتديت ملابسي على الفور وأحضرت الطبيب — فقال إنّه يعتقد أنّها ماتت منذ أربع أو خمس ساعات » .

وفكّر جرول : منذ أربع أو خمس ساعات ، يعني بعد أن أصلحتُ حسابها بقليل .

وقال : « لا أريد أن أُطيل عليكِ ، وقد أصبحت زيارتي بغير فائدة » .

واستدار لينصرف .

وقالت السيّدة متردّدة : « أتسمح بأن أرجوك أن تقدم لي خدمة ، ما دمت عائداً إلى البلد ؟ »

وأومأ جرول برأسه .

وردّ : « عربتي تحت » .

وقالت المرأة : « لقد كتبت عنواناً ، انتظر لحظة من فضلك ، سأُحضر الورقة » .

ودخلت مسرعة وهي تجرّ قدميها ثمّ عادت على الفور .

وقالت : « ها هي ذي الورقة ، فيها عنوان موثق العقود الذي ينبغي أن يعرف خبر وفاتها الآن . وقد أعطتني السيّدة روتناجل مساء أمس العنوان عندما ذهبت إلى الفراش ، وقالت لي أن أتصل به إذا حدث لها شيء . وما دمت أنت ذاهباً إلى البلد على أيّة حال — » .

وأجاب جرول : « سأفعل هذا عن طيب خاطر . إلى اللقاء » .

وأعطى جرول العنوان لسائق التاكسي ثمّ جلس على مقعد

في خلفيّة العربة وفتح خطاب البنك إلى السيّدة روتناجل . وفكّر : لا أعتقد أنّه من الضروري أن أودع لحساب السيّدة روتناجل أكثر من رأسمالها ، فليس من مهمّتي أن أقوم على غذاء ورثتها . ثمّ قرأ الخطاب — طبعاً : نرجو لأسباب شكليّة بحتة أن تتكرّمي وترسلي إلينا شهادة بأنّك سحبت من حسابك عشرة آلاف مارك . . . أيّها الإخوان ، يمكنكم أن تنتظروا الآن فالموتى لا يرسلون شهادات — ومزّق الظرف والخطاب ووضع الورق الممزّق في حقيبته وفكّر : لا بدّ أن أحرقه ولا يصحّ أن ألقيه ، فالاحتياط قبل كلّ شيء . ودفع لسائق التاكسي الأجرة أمام بيت موثق العقود الذي لم يكن بعيداً عن فرع الجنوب ، بحيث كان في استطاعته أن يقطع المسافة إلى البنك على قدميه .

وفتحت له الباب موظفة ذكر لها اسمه ، ثمّ أبلغها خبر وفاة السيدة روتناجل . ورجته أن ينتظر فقد يكون للسيد الموثق أسئلة . وبعد قليل أتى الموثق نفسه وسأل : « هل ماتت السيدة روتناجل هذه الليلة ؟ »

وأجاب جرول : « نعم » .

وسأل الموثق : « وأنت السيّد جرول ؟ »

« نعم » .

وأحضرت الموظفة التي فتحت لجرول الباب ، ملفّاً

سلّمته إلى الموثق الذي راح يقلّب فيه .

وسأل : « وأنت مدير فرع الجنوب ؟ »

وأجاب جرول : « نعم » .

وقال الموثق : « لقد أوصت السيدة روتناجل بأن تكون أنت وريثها الوحيد » .

وفكّر جرول : نعم ، والآن ينبغي أن أحسّ بشيء مثل الامتنان ، أو ينبغي أن أحسّ بالإذلال والضعة ، فأنا سعيد لحصولي على المال ، هذا كلّ ما في الأمر . ثمّ أفكر بعد ذلك في أن الانفعال الذي انفعلته والاضطراب الذي تعرّضت له لم يكن له داعٍ — ولكن الانفعال أو الاضطراب يأتي لأن الإنسان لا يعرف هل يصادف شبكة توصد المنفذ أو تماسيح تملأ النهر وتعضّ الناس أم لا .

ثمّ فكّر : أمّا أعقد ما في حالتي فهو الذنب ، في جميع الأحوال الأخرى تجتمع كلّ العوامل لتسوق المذنب إلى القاضي — الذي يسأل أحياناً في نهاية القضيّة : « هل تعتقد أن العقوبة ستصلحك ؟ » فيرد المحكوم عليه : « نعم » أو « نعم ، أرجو الله أن تكون كذلك » . ولكن في حالتي تعاونت كلّ الأمور على إبعادي عن المحكمة — كأنّما كان ذلك رغبة من الله في ألاّ تحلّ بي عقوبة ، فلا بدّ أن يكون لذلك أسباب . لم تحلّ بي عقوبة — بل لقد نلت مكافأة . لو

كان قد أراد أن يعلمني ، لأرسل إليّ قاطع طريق في حديقة نادي القمار ، بعد أن أكون قد حملت الربح وانطلقت به ، فيهدّدني بالمسدّس : حياتك أو مالك ! ويكون عليّ ، في عزلتي وبُعد الناس عني ، أن أعطيه كلّ شيء معي — واليوم أُصبح وريثاً وحيداً لثروة كأنّها تراب هبّت الريح فأطاحت به . والكلب لا يعضّ إلاّ الأخير .

لا ، لقد نلتُ مكافأة ، وسَعْدُ الشرير كمدٌ للمؤمن التقي — وقد يظنّ البعض أنّني لن أعود بعد الآن إلى فعل الشرّ ، وأن المذنب يُصلح نفسه ، عندما يجد من يدلله ، ولكني أريد أن أكون صادقاً : فعلتي لا تؤرقني ، وأنا لست محطماً ولست ممتلئاً بالندم — وعلامَ كنت أندم ؟ لم أسبّب للسيدة روتناجل ألماً ، فقد سعدت بوجودي ، دون أن تعرف ما بنفسي من خير وشرّ ، ولعلّها فكّرت بي قبل أن تلفظ آخر أنفاسها كأنّني ابنها — طبعاً كان من الممكن أن تسير الأمور سيراً آخر ، ولكن هذا لم يحدث ، هكذا شاءت المقادير التي لا تعلّل ، وليس هناك جدوى في التفكير في هل يمكن بطريقة أو بأخرى تعليلها ومعرفة أسبابها .

ثمّ مشكلة الذنب . وفكّر : إنّها مسألة عويصة . أنا لم أضرّ أحداً ، فلِمَ يضطرب ضميري ؟ كأنّني قابيل قاتل أخيه الذي مات منذ قليل — لقد ضاع وقت الحديث عن

الذنب والخطإ ــ فمن هذا الذي يستطيع أن يقتل ميتاً ؟ ولكن هذه الفكرة لم تهدئه ، وبقي واقفاً في وسط الطريق ؛ لن يمكنني أن أعيش بريئاً من الذنب تماماً إلاّ إذا لم يكن هناك ضمير ولم يكن هناك شكّ في أنّني جدير بالغفران . ولكن الأمور تتعاقب كلّ يوم ناعمة في حركتها وكأنّما تتحرّك على قطيفة . ولكن الثلج يرتعش تحتك ويوشك أن يتحطّم ، فوق الأعماق ، وستسمع صوته كلّ ليلة .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

مائة ساعة قبل بانكوك

قصة قصيرة بقلم : أرنست شنابل

حتّى الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة والأربعين ، أي قبل بدء قصتنا بدقيقة واحدة ، لم يكن أحد ممّن على ظهر الباخرة « بلاكبول » التابعة لخط « جرين فانل » للملاحة ، يدري شيئاً ممّا سيحدث . وقد كانت جميع الظروف المؤاتية لوقوع الحادث مجتمعة بالفعل ، لا يمنعها شيء من أن تأخذ مجراها . إلاّ أن الظلام كان يخيّم على مؤخرة السفينة . ولم يكن في إمكان أحد أن يتفادى المأساة ، فقد حالت الظلمة الشديدة دون توقعها .

كانت « بلاكبول » وهي باخرة متوسطة الحجم ، لا تسير وفق طريق ملاحيّ ثابت ، وإنّما تبعاً لمقتضيات الحاجة ، قد عينت لقطع المسافة من « إيديلايد » — عاصمة إقليم أستراليا الجنوبية — إلى ميناء « بانكوك » . وإذا بها قد مرّت بطريق « بالي » الملاحي وانعطفت منذ ساعة لتعْبر بحر « زوندا » .

كانت الريح ساكنة ، والنجوم في كبد السماء ، وجزر من السحب ترفرف على مقربة خفيضة من سطح البحر ، بينما جرّت خلفها سُحباً أخرى هائلة مطيرة ، وبلغت فوق ذلك درجة حرارة الجو « ٣٠ » فوق الصفر (!) . أي أن الهواء كان — بعبارة أخرى — كهواء المشاتل الزراعية . — لم يكن سطح السفينة مضاء لا في مقدمته ولا في مؤخرته . وعلى حافّة إحدى فتحات الشحن الخلفية جلس بحار نعسان تهدلت أعضاؤه حتّى كادت أن تتكوّر . وحملقت عيناه أمامه (!) . كان في مقدور هذا الرجل أن يتفادى وقوع هذا الحادث، إلاّ أنّ تلك الليلة كانت كما ذكرنا شديدة الظلمة . فقد حاول يائساً أن يقاوم التعب إلى أن ترامت لسمعه أجراس الباخرة ورنت قرعة الناقوس تعلن « ثلاثة أرباع الساعة » أو — كما يقول البحارة — موعد الاستيقاظ . هنا ترك صاحبنا نفسه ينزلق من الكوة إلى منتصف السفينة ، ويسير مجرجراً قدميه على طول سورها . وقد كان في مقدوره هذه المرة أيضاً أن يتفادى حدوث الأمر كلّه ، إلاّ أن النعاس جعله قصير النظر ، ثم جاءت الظلمة فجعلته أعمى تماماً . وهكذا راح يواصل جرجرة قدميه دون أن يتفادى وقوع شيء . وفي منتصف السفينة جعل يقرع بعض الأبواب . « مستر سميث » — (وتأتي من الداخل « نعم » مكتومة) — « الأربع . . » — (وتصدر تنهيدة

خفيفة) — « مستر بوتر » — (« نعم » في يقظة !) .
« إلا ّربع ! » — (صوت خرفشة منبعث من الفراش وضربة مكتومة ناجمة عن ارتطام قدمين حافيتين بالأرض) — وأخيراً على الباب الذي يحمل نحاسة محفوراً عليها : « مهندس ثانٍ » :
مستر ماكي ؟

(سكون) .

مستر ماكي ؟

(مرّة أخرى سكون) .

وفتح البحار الباب مواربأً إيّاه . .

« مستر ماكي ؟ »

(« ماذا ؟ » بصوت يخيّم عليه الدهشة والاستنكار .)

« إلاّ ربع ، يا مستر ماكي » .

(« يا إلهي . . » بنبرة إرهاق شديد) .

ثم عاد البحّار يجرجر قدميه من جديد حتّى اختفى في أعماق بناء السفينة . .

لم يحدث شيء في الدقيقة التالية على ذلك ، ولكن في تمام الساعة الثالثة والدقيقة الخمسين انفتح الباب ذو النحاسة المحفور عليها « مهندس ثانٍ » وظهر مستر ماكي .

ظهر على المسرح .

ولعلّه من المؤكّد أن « مستر ماكي » سيستاء لو علم أنّنا

استرجعنا هذه اللحظة معرفين إيّاها بأنّها لحظة « ظهوره على المسرح » وهكذا على الملأ (!) فهو لم يكن وقتها مستعدّاً بعد لمواجهة الجمهور ، فضلاً عن أنّه لم يكن إطلاقاً مرتدياً ما يسمح له بالقيام بدوره في الليل في غرفة الماكينات . فكل ما كان يرتديه لا يتعدّى سروالاً طويلاً ، بينما وضع في قدميه خفين جلديين ولم ينوِ أكثر من أن يتمشّى قليلاً على سطح المؤخرة ويستند لحظة على سور السفينة موجّهاً بدنه ووجهه نحو البحر . — وليس هنا محل للبحث عن الهدف من وراء ذلك ، فقد ظلّ الأمرُ مجرّد نية . نيّة لم ينفذها مستر ماكي . إذ تفجرت في أعمق أعماقه الأزمة أو نقطة التحول في مصيره أو الكارثة التي ألمّت به .

وإلى أن حدث هذا الانفجار كانت قد مرّت بالتأكيد ثلاثون ثانية من الوقت ، أو بتعبير مكاني أربعة عشر متراً ونصف ، فقد كانت هذه هي المسافة من باب قمرته حتى النقطة التي اعتاد أن يقف عندها مستنداً إلى سور الباخرة . ومما يوضح هذه القصة إلى درجة بعيدة أنّه فوق المتر الخامس من هذه المسافة كان يسطع ضوء خافت لمصباح صغير وحيد معلّق فوق نهاية الممشى المدهون باللون الأبيض في منتصف السفينة ، على أنّه كان يتيح قدراً من الضوء يسمح بالتعرف على مستر ماكي لمدة ثانية واحدة ، وهو ماض يجرّ قدميه

جرّاً . كان الرجل الذي راح يخطو هناك بخفيه خطوات ثقيلة بطيئة ، قصير القامة مكتنزاً في حوالي منتصف العقد الخامس من عمره . وكان شريط المطاط المثبت في سرواله مشدوداً على آخره . ورأسه مغطى بطبقة قصيرة من الشعر ذات لون بنّي أشهب . أمّا وجهه فتكسوه ثنيات تنم عن طيبة لا عن حدة ، وتشع من أنفه المكوَّر حتى أذنيه ومنبت شعره فوق جبهته . ولا بدّ هنا من أن نضيف أن ثمة جموداً كان يعلو هذا الوجه . بل من المهم أن نذكر ذلك ، فقد كان مستر ماكي لا يزال نائماً ، أو قل نصف نائم ، إذا علمنا أنّه كان في طريقه إلى هدف معيّن ، وإن كان في سُبات تام عمّا سيحدث له بعد قليل ، فقد أفصح عن سحنة خالية من الإحساس ، عن سحنة رجل ترك نفسه لقبضة قوى مبهمة وغاب هو في يد القدر . كانت أسارير وجهه نائمة في أبعد الأوقات صلاحية للنوم . وحتى لا نطيل نذكر هنا أنّه مرَّ بالمصباح الصغير وسار في خطوات ثقيلة عابراً بمؤخرة سطح السفينة في طريقه نحو سور الباخرة حتى إذا بلغه انحنى ممسكاً إيّاه بإحدى يديه ، وباليد الأخرى راح يعبث في سرواله ، وإذا به يسقط برأسه في البحر . ــ وقد كان في مقدور البحّار النعسان الذي جلس هنا على حافّة فتحة الشحن منذ عشر دقائق فقط أن يتفادى حدوث ذلك ، فقد ارتكز مستر ماكي على سور كان المفروض

أن يكون موجوداً وإن لم يوجد في الواقع خلافاً لجميع اللوائح والتعليمات . على أي حال فقد حدث الذي حدث ، وما نحن الآن بقادرين على أن نفعل شيئاً لإنقاذ صاحبنا . ومن ثم فإني بصدد أن أروي هنا كيف تم الحادث في هذه الساعة وذاك المكان . قلنا إن الباخرة « بلاكبول » كانت في طريقها من ميناء « إيديلايد » إلى سيام في بحر « زوندا »، ولم يكن قد سبق لها أن عبرت هذه المنطقة البحريّة . وكذا لم يسبق لـ « ماكي » أن بلغ بحاراً آسيويّة ، لا أثناء الإحدى عشرة سنة ونصف السنة التي ظلّ يبحر طوالها على ظهر « بلاكبول » ، ولا قبل ذلك طول الفترة التي قضاها عاملاً مختصّاً في آلات السفن ، إذ كان لا يمر إلاّ بموانىء القارات الأخرى ، أمّا آسيا فكانت عنده أرضاً يسكنها أناس قصار القامة قمحيو اللون كفوفهم كخف القط وعيونهم مسحوبة مليئة بالخبث وآلهتهم شريرة وعاداتهم غريبة غامضة ، وباختصار فهم عنده قوم لا قلب لهم على الإطلاق .

وإذ تلقّى وصحبه في ذات يوم ، بينما كانوا راسين بباخرتهم في « إيديلايد » ، أمر التوجه إلى آسيا ، تعثّرت أنفاسه هلعاً ، فقد كان في سن حرجة أصغر من أن تسمح له باستقبال التجارب الجديدة في عدم اكتراث ، وأكبر من أن تدعه يفرح لها ويسعد بها . وعندما سمع النبأ ظل رابط الجأش

في الظاهر ، أمّا في الباطن فكان يشعر بالخوف من شيء مظلم غامض خطر في انتظاره . زال عنه الخوف قبل بلوغهم « بانكوك » بمائة ساعة ، حيث كانوا يعبرون جزر «زوندا» ، فقد كان منظرها لا يختلف عن مرأى غيرها من جزر العالم . ولعل الأمر كذلك أيضاً بالنسبة لأهل هذه الجزر ، ذوي البشرة السمراء ، لو أنّه أُتيحت له فرصة مشاهدتهم ولو مرّة واحدة . ولكنه إذ حلّ الظلام وهبّ الهواء ذو رائحة «الفانيليا» ، ذلك الهواء الساخن الثقيل المعرقل للتنفس الدافع على النوم — وكأنّه هواء المشاتل الزراعيّة — عاودته الأحاسيس الكئيبة من جديد . وساقه هذا الهواء إلى النوم فنام كما لم ينم قطّ من قبل ، نام كميت — فلا بدّ لنا من أن نراعي ذلك . وقد كان المفروض أن يراعي ذلك أيضاً أناس أُخَر ، كبحارة « بلاكبول » مثلاً ، وهم الذين أبعدوا قطعة من سور الباخرة كي يسهل عليهم إلقاء شيء ما ، يبدو أنّه كان فضلات مكومة من قشر الغاب الهندي ، بإزاحته من غرفة الشحن إلى البحر . وأثناء قيامهم بذلك فاجأهم ظلام المساء ، ولم يكونوا قد انتهوا من مهمتهم بعد ، وبالتالي لم يعودوا لتثبيت قطعة السور المنزوعة في مكانها ، وإنما مدوا ببساطة حبلاً غليظاً عبر هذا الموضع وانصرفوا إلى قمراتهم . ولم يكن هذا الحبل مثبتاً على نحو جيد ، فلم يلبث أن انزلق وانفتحت الفجوة من جديد ، وهكذا

عبرها ماكي .

عندما تدافعت المياه فوق ماكي أفاق من سُباته . وهنا اخترق رأسه حجاب النعاس وابتلع موجة هائلة من مياه البحر . وقد تخيّل في نفس الوقت الذي سقط فيه وجعل يهبط في أعماق اليمّ ثم يعود ليرتفع ببطء من جديد على سطح المياه أن انفجاراً مروعاً قد حدث ، لذا فما إن ارتفع برأسه فوق سطح الماء حتى صرخ بأقصى جهد ممكن . ولم يكن صراخه يحمل معنى مفهوماً . وبينما كانت الباخرة قد مضت مبتعدة ، خطر له فجأة أنّها لا بد أن تكون بعد هذا الانفجار المروع قد غطست في بطن المحيط ، فصرخ على رفاقه في المأساة ، طالباً طوقاً أو زورق نجاة . وإذ لم يجبه أحد بكى على موت جميع صحابه . وأخيراً بعد أن استطاع أن يدفع الموجة مرّة أخرى عن نفسه تبيّن له بوضوح أنّه وحيد ، ثمّ أبصر ظل السفينة صوب النجوم ، وفي منتصف ذاك الظل كانت ألمع تلك النجوم : ضوء المؤخرة . وراح هذا الضوء يبتعد . .

لم يلحظ أحد على سطح السفينة شيئاً ، إلاّ أنّه بعد مضي عشر دقائق بعث كبير المهندسين ، ويدعى اختصاراً «بالعميد» ، يسأل في مركز الربان من السفينة عن مستر ماكي وعمّا إذا كان ينوي أن يحل مكانه أو أنّه أوقظ أصلاً ، وذهب أحد البحّارة المسؤولين عن الحراسة لينظر في حجرة مستر ماكي ،

فلمّا وجدها فارغة أجيب « العميد » بأن المذكور في طريقه إليه ليحل مكانه في العمل .

مضت خمس دقائق أخرى واغتاظ « العميد » بينما خطر للملاح الحراسة الجديد أن يسأل زميله الذي سبقه في الحراسة عن مستر ماكي بعد أن ظلّ هو يبحث عنه بلا جدوى . وانتشرت الجلبة فوق سطح السفينة ، وتعالت أصوات قرع الأقدام على سطح الباخرة الحديدي . وفي تمام الساعة الرابعة والدقيقة السادسة عشرة تبيّن لهم الأمر : فقد كان البحار النائم يدوس على شيء ليّن أثناء مروره فوق مؤخرة سطح السفينة . كان يدوس على خفّين وُجدا على بعد نصف متر من السور الذي لم يوجد الجزء المقابل منه لمكان الخفين ، كما نعلم . .

حالاً أدرك الملاح ما حدث ، وصاح : غريق ! !

عندئذ هرول قائد السفينة من قمرة القيادة إلى سطح الزورق ، وظهر القبطان : كلمات منفعلة ، إيقاظ ، حركة إعداد الزورق ، الباخرة تحوّل وجهتها ، عمل سريع في قمرة الخرائط (القبطان يحسب المسافة التي يجب أن يعودها) — وأبحرت السفينة لربع ساعة في الاتجاه العكسي ، ثم توقفت وأنزلت قارباً إلى الماء . .

شاهد مستر ماكي كل ذلك . فقد اختفت « بلاكبول » عن مرآه لبعض الوقت ، ثمّ عادت لتظهر أمامه فجأة قادمة

نحوه في خط مستقيم . عندئذ تهلل بشراً . وهبّت في نفسه خواطر رفيعة عن الإخلاص والتمتع بالأمن في صدر الرفيق المخلص ، وبدأ بالفعل يفكّر في الكلمات التي سيحيي بها منقذيه في زورق النجاة ، وفي المبررات والحجج التي سيعود بها إلى ظهر الباخرة ، وكيف سيرد على السخرية من غفلته . وعادت السفينة تستدير . ثمّ توقفت . وتحركت الأضواء على سطحها ، ثمّ انفصلت نقطة صغيرة عن جدار سطحها (تعرّف فيها ماكي بنظرة حادة على زورق النجاة) وبدأت هذه النقطة المضيئة تتحرك عشوائيّاً على سطح البحر الواسع باحثة عنه .

وتفجرت ضحكة استهزاء من فم ماكي . وراح يجأر عالياً : هنا ، ألا ترون !

ولكن الزورق كان أبعد من أن تبلغه صيحاته اليائسة . رغم ذلك لم ينقطع ماكي عن الصياح ، بل راح يصرخ ويرجو ويولول بحرقة في أعماق الليل حتى كادت أنفاسه تتقطع ، ولكن ذلك لم يجدِ فتيلاً . ولم يقتصر على مناداة الزورق ، بل راح يلقي إليه بالتعليمات ، وينهر قائده ، ويوضح مكانه — وباختصار أخذ يصرخ ويبكي حظه العاثر فوق المياه الخالية المترامية ، حتى خارت قواه . وكان الأمل قد فارقه من قبل : فقد كان من الجلي تماماً أنّه لم يكن بإمكان ركاب الزورق اكتشافه على هذا البعد النائي بأي حال من الأحوال . كما

اتضح له أيضاً أيّ خطإٍ كان علة مأساته . وقال لنفسه : لا بد أنّهم على سطح الباخرة قد افترضوا أنّي سقطت في الساعة الرابعة . ولكن ألا يحق للمرء أن يظهر على سطح الباخرة قبل بدء دوره في العمل بعشر دقائق ، وبالأخص إذا كان هنالك ما يدفعه إلى ذلك ؟

لا بدّ أنهم أخطأوا الحساب ، وهذا ما حدث فعلاً . حقّاً ، أخطأوا الحساب . وجعل زورق النجاة يبحث ويبحث ، بينما ظلّت الباخرة راسية على مقربة منه مدة من الزمن ، ثمّ بدأت تتحرّك متخذة مسارها القديم ، باحثة هي الأخرى في خضم البحر ، ولكن بالطبع في الاتجاه الخاطيء ، وأخذت تبتعد بعد أن رفعت أخيراً زورق النجاة إلى سطحها ، ورسمت مرّة أخرى دائرة كبيرة بطيئة على سطح الماء ثم مضت في سبيلها .

مضى ما يقارب الساعة من الزمن على هذه المناورات . وأيقن ماكي أنّهم فقدوا الأمل في العثور عليه . لقد أصبح في نظرهم رجلاً ميّتاً . .

والواقع أنّه ما كان بإمكانه ، نظراً لحلكة ظلام الليل وبُعد المسافة الشاسعة وصغر المصابيح المستعملة للبحث عنه ، التعرف على هذه التفاصيل بالدقة التي وصفناها بها هنا ــ ولكنّه رأى كل شيء على الرغم من كل ذلك ، إذ إن هلع الموت ، ذلك

الشعور الشاحب المقبض الخانق الدافع للنبض ، زوده بحدة بصر غير عاديّة . وما فاقت به معرفته حدة بصره ، كان قد أوحى به إليه خيال جديد وقدرة على الربط والاستنتاج أشبه ما تكون بخفاش استيقظ فجأة وراح يرفرف بطريقة جديدة غير معهودة في صدر صاحبنا الذي لم يُعرف عنه فيما مضى سوى ضيق الأفق وإجداب الخيال . ولكنه أيقن في نهاية الأمر أنّه ميت . . لا محالة . ففقد الأمل . . إلاّ أن شيئاً ما تشبث به . . بالأمل ، شيئاً ما ، شيئاً في أعماقه ، طاقة ذاتية التشغيل لا تعرف الكلال ، حبّاً للحياة احتل مكانه من عنقه كدمّل كبير ، كدمّل مزعج موجع . وأجبره على مواصلة المحاولة قوة مؤرقة متعبة . أمّا الصلوات ، والأفكار ، وكل ما يتخبط في قرارة نفس مسيحي يستعد للقاء الموت ، فقد امتنعت عليه الآن . لقد انقلب ذلك المسيحي فجأة حيواناً يصارع المياه ، كلباً على وجه الغرق ، أو قنفذاً يلفظ أنفاسه الأخيرة : ماكي بعينين جاحظتين ، وشفتين شاحبتين ، وشعر قصير أشعث .

لقد كان مستر ماكي طيلة حياته سبّاحاً ماهراً . فمنذ أن شب عن الطوق وهو يستريض في الماء حتى بز في هذا المضمار معظم أصدقائه في مسقط رأسه وعلى سطح الباخرة . ولم يعد تفوقه إلى سرعة غير عاديّة ، بل إلى طول أناة ومثابرة ، وبذلك كان باستطاعته في كل مناسبة أن يثبت عكس ما يقال

عن البحارة من أنّهم لا يجيدون السباحة ، فضلاً عن أنّهم يمتنعون عمداً عن تعلّمها حتّى لا يضطروا في يوم ما كهذا ، أو في ليلة يائسة كهذه ، إلى مصارعة الموت طويلاً . وقد استطاع مستر ماكي فيما مضى قضاء خمس ساعات متواصلة في الماء ، وقد قام بذلك لآخر مرّة منذ عشر سنوات . ولكنه كان على يقين من أن بمقدوره الآن أن يظل عائماً ثلاث أو أربع ساعات كاملة إن لزم الأمر . .

ولكن الظروف أثبتت أن السباحة في حمّام أطرافه الأمينة في متناول اليد ، لا مجال لمقارنتها بالسباحة في الفضاء الكوني : النجوم فوقه تتلألأ في قبة السماء ككتائب جيش لا حصر لها ، وقد انعكست صورتها في الماء بجانبه حتّى كاد الدّوار يصيبه . وما من أفق يشير إلى نهاية . أين فوق ؟ أين تحت ؟ ما النجوم ؟ ما البحر ؟

وإذ لاح بعد مضي مرحلة من الوقت ، بصيص من النور الوردي في هذه المتاهة ، وراح القمر يتنصل شيئاً فشيئاً من هذا الضياع ، وإذا به هلال ضامر للغاية ، أو منجل فعلي من النحاس الأحمر مستلق على ظهره ورافع قرنيه إلى العلاء ، أو قمر استوائي هزيل في ربعه الأخير يوشك على الزوال ، لم يجد ماكي فيه أيّة نقطة ثابتة يتمكّن من الاعتماد عليها ليتحمل مصيره ولو بعض الشيء . والأمر الوحيد الذي كشف عنه

قمر الغسق المنخفض ذاك ، كان ملامح أشرعة صغيرة تنساب تحته فوق سطح الماء .

لو كان مستر ماكي على خبرة بعادات ملاحي هذه البحار ، لوجب أن يسترعي انتباهه أنّه من الممكن أن يكونوا في طريقهم المعتاد ، في مثل هذا الوقت ، عبر بحر « زوندا » ، متجهين إلى جاوة للمتاجرة بلباب جوز الهند المجفف . لو علم ذلك لتعلق بأهداب الأمل ، لتردد نفس باهت من الثقة في أعماقه ، فهذه السفن الشراعية تمخر عباب البحر في كل اتجاه وليس تحت القمر فحسب . ولكنه لم يكن يعرف تلك البحار حيث يهب النسيم مشبعاً بعبير « الفانيليا » ، بل إنه لم يتوقع على الإطلاق أن تكون هذه الملامح قوارب شراعية . كان البحر والسماء من حوله داكني الزرقة ، ولكنهما اصطبغا حول القمر بلون أسود قرمزي ، سواد يتخلله عرق من الاحمرار ، وفي وسطه تلك النقط المثلثة الدقيقة .. وإذ طرف بعينيه متشككاً من فوق الماء حسبها سفناً من غيوم أو خيالاً أو هذيان أحلام ، حسبها سراباً شيطانيـّاً ، أو عربات جن تحمل عفاريت ذوي عيون مخملية وأيدٍ ككفوف القطط ، وتجتاز بحاراً كهذه وسماء كهذه ، يا لها من ليالٍ مرعبة ! ويبدو أن أحد هؤلاء العفاريت ، الذين كان مستر ماكي متأكداً من أنّه يراهم بوضوح ، كان طيـّب القلب ، هذا أمر أكيد ، ونعني

بذلك ذاك العفريت الذي أغلق عينيه عن الأخطار المحدقة به فعلاً ، الذي أغلق عينيه وإحساسه معاً . إذ لو كان مستر ماكي قد فكّر ولو لحظة واحدة في حقيقة موقفه ، لوجب عليه أن يتذكر سمك القرش : ذئاب البحار الضارية . وبالفعل كان سمك القرش متوفراً في تلك الليلة وفي ذلك البحر ، ولكن العفاريت ذوي القلوب الطيبة كانوا متوفرين أيضاً ، إذ إنّهم لم يغلقوا عيني مستر ماكي فحسب ، بل أبعدوا كذلك سمك القرش عنه . وبالتالي لم يكن على مستر ماكي سوى التغلّب على سمك القرش الذي كان يرتع في داخله هو : قرش اليأس ، قرش الكسل ، قرش تشنج الأطراف . . .

وفجأة أحس مستر ماكي بأقصى ضروب الآلام في يديه ، فكوّرهما إلى قبضتين ، ولكن ذلك لم يجدِ شيئاً . وشعر بجلاء أن النهاية قد أتت . لقد بدأت في الأنامل . ها قد عرف الآن ، أن موت الإنسان يبدأ في اليدين . وفي تلك اللحظة برزت سمكة قرش جديدة في داخله : فقد حاول ماكي أن يتصور الآن أيّ طريق سيختاره الموت إليه ، وقد دنا الموت منه إلى ذلك الحد . قد يرسب إلى قاع البحر . وهنا تذكر أن البحر هنا قرب جزر « زوندا » عميق بشكل رهيب : خمسة آلاف متر . إذن فعليه أن يرسب مسافة خمسة آلاف متر . ولكنه لن يشعر بذلك ، إذ إنّه من البديهي أن تحل النهاية حين يبدأ

الرسوب . ولم يكن خوفه من الغرق هو السبب في هلعه ، وانما اكتشافه أنّه بيديه ، فقط بهاتين اليدين المخططتين بالألم ، يتمسّك بحافة هوة سحيقة مرعبة . . كل شيء بات متعلّقاً بهاتين اليدين — ولم يكُ في العالم بأسره هوة تفوقها رعباً ، تفوقها سحقاً . . وما من شيء يحول بينه وبين السقوط فيها . . سوى يديه . .

آه ! إن الأرض حملت ، نعم حملت من عليها . لقد خبر ذلك في حياته . ومن أراد أن ينفذ إلى داخلها ، وجب عليه الاستعانة بجاروف . أما الهواء فإنّه لم يحمل شيئاً ، ولكن الإنسان تمكّن من التحايل عليه بالمنطاد . فما حال الماء ؟

عندما كان مستر ماكي لا يزال الصبي ماكي ، ولم يقدر على السباحة بعد — ماذا كان ينقصه آنذاك ؟ لا شيء . كان يعرف الحركات الواجب اتّباعها ليحتفظ المرء بنفسه فوق سطح الماء — ولكن هذه المعرفة وحدها ليست كافية . إذ إن الماء يتطلّب أكثر من المعرفة . هل كانت معجزة أن استطاع يسوع الناصري أن يخطو على سطح الماء ؟ أين كان الفارق ؟ باستطاعة كل امرىء أن يطفو على سطح الماء ، ولو أنّه لا يبقى جافّ البدن . ولم يكن على عيسى سوى التخلّق بالشجاعة والإيمان بعزيمته . بالثقة بالنفس فقط . بالثقة التي لا تتزعزع بأن الماء قادر على حمل من وما عليه . ولكن الماء لم يعد الآن يحمل مطلقاً . إذ

أرخت يدا مستر ماكي قبضتيهما وقلّص التشنج عضلاته وانتابته بغتة برودة شديدة تخللته حتى القلب ، ووجدت المياه طريقها إلى داخل فمه ، فصرخ ، صرخ كما لم يصرخ في حياته قط . صرخ فوق الماء فانسحبت المياه لصراخه مضطربة ، وبدأ خريرها يرتفع ، وامتلأت بأصوات مبهمة ، بأشرعة سفن الأحلام الخافقة ، بتصفيق الأشرعة . ولكن هذا كلّه كان معروفاً لمستر ماكي : إنها سفن الشياطين التي انسابت تحت القمر ضائعة وحيدة خلال الليالي ، يتلاعب في أشرعتها عبق الفانيليا ، وما من هدف لها — والآن ، ها قد تجاسرت على القرب منه، وراحت تسلط نور مصابيحها الأصفر على وجهه . وبدأت المياه تلمع ، ودكن لون القمر والنجوم ، ما عدا نجم أوحد راح يحوم بغتة في العلى . والآن توهجت شمس ضخمة في وجهه مباشرة . ومرة أخرى صرخ مستر ماكي . مرة أخرى كما لم يصرخ البتّة من ذي قبل ، ثم تصلب وازداد ثقلاً ورسب .

وعلى هذا التصلب والثقل شدوه إلى سطح مركبهم . ووقف ملاّح من ملاحي لباب جوز الهند ، كشراع من أشرعة الحبال ، وقف فوق عينيه المغلقتين المتورمتين ، وأطرافه المتشنجة ، وغيبوبته . وراحت أيدٍ سمراء اللون تدلكه وتسعفه وكلمات غريبة تهدل من فوقه . .

وعندما أفاق بعد وقت طويل ورأى ما حدث له ، رأى أين كان راقداً ، رأى تلك الأشرعة الصغيرة البيضاء ترفرف فوق رأسه ، ونظر إلى الناس ذوي البشرة السمراء ، الذين أقعوا بجانبه يحدقون إليه بعيون مخملية حقّاً ، وسمع صوت اصطدام الأمواج بمقدمة السفينة ، وشعر بنسيم الصباح الخافت ، وأحسّ بواكير الفجر وثقل أطرافه ، وهنا ، هنا فقط ، أدرك أنّه بسقطته من على ظهر « بلاكبول » قد تجاوز الحدود فعلاً وتركها خلفه ، وأنه لن تكون له عودة بعد ذلك إلى حياته الماضية .

ترجمة : مجدي يوسف

الحج

بقلم : هانز بندر

عندما كنت صغيراً وفرحاً تحت
أغصان شجر التفاح
عند البيت المهدهد ، وسعيداً
لأن العشب كان أخضر . . .

ديلان توماس

مرهقاً ونعسان وقف هانز على الطاولة في المطبخ بينما كانت آنّا ترقع البنطلون .

« ألم يحن الوقت لتناول القهوة ؟ » سأل الوالد .

« كان ممكناً أن أنتهي من زمان لولا عناده » قالت آنّا شادّة شقّال البنطلون كأنّها تريد الانتقام منه لأنّه بسببه كان عليها النهوض وقت النوم .

قفز هانز عن الطاولة ، ولبس حذاءه دون مساعدة . فقد

كان صندلاً جديداً ، أصفر ، ومقفّعاً .

وعندما وضعت آنّا الفناجين والمربّى والخبز والإبريق على المائدة وتسربت رائحة القهوة إلى الأنوف دخلت الأم وقالت : « اليوم لا نشرب قهوة » .

وهنا سأل الأب الذي كان قد قعد : « لماذا لا نشرب اليوم قهوة ؟ »

« من المحزن أنك لا تعرف » أجابت الأم .

أمّا لهجتها التأنيبية فقد كانت واضحة مع أنها وقفت أمام المرآة مديرة ظهرها لتغرز الدبوس الطويل خلال قبعتها في شعرها .

راح الأب يحتسي القهوة . وأمّا آنّا التي لم يشملها قرار المنع لأنّها بقيت في البيت فقد جلست إلى المائدة وراحت تغط الخبز في الفنجان . فإذا بأمها تناديها وقد أخذت الغطاء عن الطنجرة وقالت لها ما يجب أن تطبخه للغداء وللعشاء .

« ولكن ربما نعود قبل المساء » .

وخارجاً دوّر الأب السيارة ؛ غير أن المحرك كان بارداً فلم يدر . ومسح عرقه عن جبينه وحاول ثانية ، ولما راح يكيل اللعنات دار المحرك . وقعد كل من الأم وهانز في السيارة المتهزهزة ، الأم في الأمام وهانز في الخلف ، بينما قعد الأب وقبض على المقود . فإذا بآنّا تخرج من البيت وتصرخ : « لقد نسي هانز قبعته » .

وبطيئاً خرجوا من ساحة البيت والتفوا في الشارع الذي كان هادئاً وفارغاً ؛ إنّه شارع قرية في صباح من حزيران قبل شروق الشمس . كان الضباب يسبح في الوادي مختلطاً بالمياه ، والشمس تشرق وراء التل الفضي الذروة كالمنشار ، ثم بكاملها ، الشمس التي تزيغ العيون والتي لم يتمكنوا من الحيدان عنها .

ومع شروق الشمس كانت تستيقظ القرى التي يعبرونها . فالبقر يسرح في الشوارع والخيول تسرع للشرب والماء ينصب لامعاً في الأحواض الخشبية من الأنابيب الصدئة والإوز والدجاج يرفرف أمام المبيت والرعاة يركبون الحمير ويسوقون المواشي والخيول على جوانب الطريق .

وخلف المراعي ظهرت الغابات ، وقد تسللت أشعة الشمس من خلال جذوع الأشجار وتبعثرت على السيارة وعلى الأب والأم التي كانت تحكي بصوت منخفض بينما راحت تعد حبات اللؤلؤ في العقد الوردي .

« في الحقيقة لا يجوز السفر إلى الحج بالسيارة » قالت الأم . « فالحجاج الآخرون يذهبون مشياً على أقدامهم ؛ إنّهم يمشون من فولدا ومن فورتسبورغ ومن كولون ويحملون معهم الصلبان والأعلام ، المرضى والحمّالات ، وبعضهم يضيف إلى هذا وضع المسامير وحبوب البازلا في أحذيتهم. . . »

« بازلا مطبوخة » علّق الوالد ضاحكاً .

راح يصفّر وضغط قدمه على البنزين ، فأشار مقياس السرعة إلى الستين كيلومتراً في الساعة .

فقالت الأم : « إنّها لكياسة منك أن تأتي بنا في السيارة مع كونك لا تؤمن بالمعجزة . إنه شيء لطيف منك . فربما تنال الرحمة مكافأةً لهذا في ما بعد » .

« أيّة أُعجوبة ؟ »

« أُعجوبة الدم المقدس » . وهنا حكت لزوجها القصّة التي روتها لهانز عند ذهابه للنوم : قبل ست مائة سنة سقط من الكاهن الكأس عند المذبح ، وبدلاً من النبيذ سقط الدم على غطاء المذبح فارتسم اثنا عشر رأساً أحمر للمسيح المكلل بالشوك .

« قبل ست مائة عام ؟ » سأل الأب مرتاباً .

« إن الغطاء يُرى أثناء الحج في صندوق ذهبي . ستَرونه » .

وقد بانت قلعة على التلة وعلى برجها رفرفت راية .

« تدمرت في حرب الفلاحين » أردف الوالد .

وكانت سنابل القمح تتموج في المرتفعات والمنخفضات ، هذه السهول الحزيرانية الخضراء المشكلة بزهور حمراء وزرقاء .

« إنّها محاصيل أرضنا من القمح ، وهذا ما ستعرفه في

المدرسة » قال الأب موجّهاً كلامه إلى ابنه .

راحت الأم تقلّب باقة الورد التي أخذت بالذبول. بينما كانت السيارة تهدر والشوارع تزداد عركشة والحصى يلتطم بالمبرّد والغبار يتطاير وغيمة شاحبة تنحني بعيداً وراء الحقول .

توقف الأب مرتين لارتفاع الحرارة في المبرّد . وفي كل مرّة رفع فيها الغطاء اندفع الماء الساخن وانسكب على يديه .

وهنا راح يكيل اللعنات ، لعنات على النجوم والسماء ، على الشيطان والشوارع ، على الوباء وسنابل الحقول .

« لا تجدّف . أرجوك ، أرجوك ألاّ تجدف » قالت الأم مولولة ؛ « فنحن في طريقنا إلى الحج » .

وظهرت عليهم البروج أولاً ، وعالياً فوق التلال بانت المدينة ، وخلف سطوح المنازل الكنيسة .

« هذه يجب أن تكون القدس » قالت الأم .

« سنكون هناك بعد ربع ساعة إذا لم تتعطل السيارة . فهذه الرحلة فوق ما يتحمل هذا الصندوق العتيق » .

صلّت الأم وتطلّعت فرحة إلى المدينة .

« إنّي جائع كذب » قال الوالد « وأنت يا هانز ؟ »

« كذلك أنا » .

« آه ، إنّكما لا تفكران إلاّ بالأمور الأرضية » ، قالت الأم متنهدة .

أعلام بيضاء مخلوطة بالزرقة والشحوب تدلت من نوافذ المدينة ، وتماماً عند المطعم توقف الأب حيث تبادل بعض الكلمات مع زوجته التي قالت أخيراً بهدوء : « حسناً ، فأنا أسبقكما وفي ما بعد تلحقان بي » .

وانحدرت في الشارع مسرعة .

وفي المطعم كان على الأب مناداة الخادمة ثلاث مرات قبل أن تجيء من المطبخ . إنّها صبيّة تضع حرّاجة بيضاء مثبتة بدبوس على تنورة سوداء .

« هدوء عندكم » قال الأب .

« الوقت لم يزل باكراً . فالحجاج ما برحوا في الكنيسة » .

« ولكنّنا حجاج أيضاً ومع هذا فنحن هنا » .

« حجاج بسيارة ــ هذا لا يجوز » .

« هذه المنطقة متعبة أيضاً ، فالثعالب والأرانب تطيّب مساء بعضها البعض ، والشوارع لم تزفت بعد » .

« أتريد أن تطلب شيئاً ؟ » قالت وكأن لحقت بها إهانة .

« طبعاً ، نودُّ الأكل والشرب ، أحضري لنا صحناً من الفورست والنبيذ ، وللصغير شراب الليمون . أي نوع تريد ؟ »

« النوع الأخضر » أجاب هانز .

« شراب الليمون البري » قالت الخادمة واتجهت إلى البار واختفت وراء الباب المفتوح .

أما الوالد فقد لحق الخادمة بنظراته وفرك يديه وتطلع إلى هانز وقال ثانية : « إنّي جائع كذب » .

« وأنا أيضاً » .

وجاءت الخادمة بالكؤوس وبزجاجة شراب الليمون .

وهنا سأل الوالد : « هل نبيذكم مليح ؟ »

« الضيوف يمدحونه » .

« أنا خبير ، هذا ما يجب أن تعرفيه » ، قال الوالد و « لمس »على مؤخرة الخادمة ، واستمر في حديثه مع الخادمة بينما كانت تحضر المائدة . وكان صوته على غير عادته ، رقيقاً ودافئاً .

وفي الصحن كانت أنواع متعدّدة من الفورست .

« طيّب . إنّه طيّب » ، قال الوالد فرحاً . «أتجده طيّباً أيضاً ؟ »

وقد وافق هانز الذي كان فمه ملآن .

« يجده طيّباً ، أطيب ممّا هو في البيت . وأنا أجده كذلك أطيب ممّا هو في البيت » قال الوالد للخادمة .

« صحة ، كلْ » .

« شكراً » .

شرب هانز شراب الليمون وأكل الفورست مع الخبز بعجلة لأن الأم لم تكن حاضرة . أمّا الأب والخادمة فقد تمازحا

وكأنّهما متعارفان من زمان .

ولمّا فرغ الصحن اتكأ هانز على الكرسي قلقاً ؛ أمّا الوالد فقد تمسك بذراع الخادمة عندما طلب الكأس الثالثة من النبيذ .

والتفت إلى هانز قائلاً : « لقد انتهيت من الأكل . فما رأيك لو سبقتني ؟ »

« نعم » .

وانحدر هانز في الشارع المغلق في نهايته بجدران الكنيسة العالية ، ونغم الأرغل يُسمع من بعيد . ولكنّه نسي القبعة . فهو دائماً ينسى قبعته ، فعاد أدراجه وخجل مسبقاً من ضحك والده .

ولمّا فتح الباب رأى الخادمة جالسة قرب والده ، وقد لفّ بذراعه كتفيها . جلسا وظهراهما إلى الباب فلم يسمعا عندما فتحه هانز وأغلقه .

توافد الحجاج من شارعين ينتهيان في ساحة كبيرة أمام الكنيسة . وكانوا يرتلون ، وهم يحملون الأعلام والصلبان وقد تقدمهم الكهنة والفتيان . ورجل ذو لحية حمل على كتفيه صليباً قُدّ من ساق شجرة كبيرة كالمسيح في الصورة المعلقة في غرفة النوم لأمي . أما الفتيات فقد حملن الشموع والغصون والزهور العطرة .

والحجاج الذين قدموا من اليمين رتلوا غير الأغنية التي

رتلها الحجاج الذين قدموا من اليسار ، وتماوجت الأغاني سوية ، وكاد رنين الأجراس في البرج يغطي على الأغنيات بينما كانت نغمة الأرغل تنبعث من خارج باب الكنيسة .

وصل هانز إلى نقطة تقاطع صفوف الحجاج وقد حصروه بباب قاعة الكنيسة الكبرى حيث دخلت أشعة الشمس منحنية من خلال لوحات زجاجيّة ملونة وأضاءت العتمة . وكان المذبح العالي جبلاً من شموع متلألئة القطرات وراء دخان البخور . وعدد كبير من الكهنة وقفوا على درجات المذبح متسربلين بثياب بيضاء وذهبية . وحمل الفتيان اللابسون الأبيض والأحمر أعلاماً وشموعاً من جانب إلى آخر بينما أرجح ثلاثة منهم مجامر البخور التي كونت سُحُباً كثيفة شبيهة بالقطن ، وتحت القبة وأمام الصور كانت السنونو تطير من نافذة إلى أخرى وتغرّد بملء صوتها مع تراتيل الحجاج وأنغام الأرغل حتى لكأن الجو سماء صيفية .

وتزاحم الحجاج باتجاه المذبح الجانبي الذي عليه اشتعلت الشموع أكثر من على المذبح العالي . وصارت الشموع تضمحل من شدّة الحرارة وتسقط نقطة نقطة على غطاء المذبح .

وبين إضاءة الشموع وذبولها لمع الصندوق الفضي الذي أحاط بشرشف أصفر ، وآثار الدم بادية — كما قالت الأم . — ولم يعد بالاستطاعة تمييز الرؤوس . اللهم إلا رؤية غطاء

المعجزة . وتعثّرت أقدام الحجاج الذين كانوا يحدقون إلى الأعلى ، وسجدوا على ركبهم أمام المذبح وقبّلوا الصليب الموضوع على الدرجات . وعالياً صلى كاهن :

« أيـّها الدم المقدس الغالي ! »

« طهـّرنا » ، صرخ الحجاج .

« أيـّها الدم المقدس الغالي ! »

« طهـّرنا » ، صرخ الحجاج .

وأرادوا الدخول إلى مذبح الدم ، فتدافعوا بين المقاعد في الممر الضيق . وعلى أحد المقاعد جلست الأم ، وعيناها — لم يظهر سوى بياضهما — شاخصتان إلى الصندوق بينما كانت شفتاها تصلـّيان ، ففرح هانز لرؤية أمـّه . واندس في المقعد وجلس بجانبها ، وبعد مضي دقائق شعرت به فأخذت يده وانحنت متمتمة : « صلّ حتّى ينال أبوك الرحمة » .

الرحمة ؟ لم يعرف هانز معنى كلمة رحمة . وأعاد صلاة الطفولة التي تعلمها مع أنـّها لم تلائم الوضعية الراهنة . ولمـّا صلى مرتين تذكر أباه والخادمة . إنـّها خطيئة ، فأمي وحدها يحق لوالدي تطويق كتفيها بذراعه . ومرة تشاجرت معه في غرفة النوم عندما استيقظ نصف الليل .

إن كانت الرحمة تعني مزيداً في محبة الأم للأب فإنّه سيصلّي من أجل الرحمة . فصرخ برقّة مع هتافات الحجاج المتكرّرة :

« طهّرنا » .

« طهّرنا » .

وعند الظهيرة وقف الوالد أمام الكنيسة حاملاً قبعة هانز الذي كان قادماً صوبه . فضحك ولوّح بيديه في الشمس وتمايل قليلاً .

« آه ، كم خسرتَ ! » قالت الأم .

« لم أخسر شيئاً » أجابها الوالد . « فقد كنت أيضاً في الداخل . وفي النهاية حصلت على البركة » .

« هذا أقل ما يمكن » .

وأمام الكنيسة جلس الحجاج أو تمددوا على العشب ، وراح النساء والأطفال يأكلون خبزاً وزبدة بينما بدأ الرجال يشربون البيرة . وقد وضع بعضهم مناديل على رؤوسهم والبعض الآخر فتحوا مظلاتهم وناموا في ظلالها .

« من المؤكد أن هانز يريد رؤية السوق » قال الأب .

« أليس كذلك ؟ »

« نعم ، سوق الحج ، ولكن أمي جائعة » .

« إنّي جائعة كذب » أجابت الأم .

ضحكوا وذهبوا سوية إلى المطعم السابق الذي ضاق بالزائرين عند الظهيرة . وكانت الخادمة تسرع من مائدة إلى أخرى ولم يكن لديها الوقت للتحدث مع الوالد ، وهذا لا بأس به .

وارتمت أشعة الشمس على سطوح دكاكين السوق حيث وقف الباعة بمظهرهم الأصفر وراء القمصان والجاكيتات والقفازات والجوارب والقباقيب والقبعات . وفي أحد المحلات تعلقت أطواق كثيرة كان ينظفها رجل من الخيوط ويقف بنفسه بينها ويحاول لفت انتباه النساء بصوت مبحوح .

« أتريدين طوقاً ؟ » سأل الأب .

« كلا ، شكراً » أجابته الأم .

طناجر مكوّمة وأوعية كبيرة سمراء وصفراء وأباريق وصحون ومنافض سواكير مزركشة بألوان متنوعة . ودار الشرّاء في الشوارع الضيقة والتقطوا الأوعية الكبيرة وقلبوها ثم دفعوا ثمنها وحملوها تحت أذرعهم وانصرفوا .

« أتريدين وعاء جميلاً ؟ » سأل الوالد .

« كلا ، شكراً » ردت الأم .

وهنا كانت محلات للزهور وللشموع وللهياكل الشمعية ولصور القديسين وللتماثيل ولأوعية السر المقدس وللكؤوس الصغيرة . وقد انباع منديل المعجزة الذي ارتسم عليه اثنا عشر رأساً للمسيح وكل واحد منها مكلل بالشوك .

« أتريدين منديلاً كهذا ؟ » سأل الأب .

« نعم ، أريد واحداً — لا اثنين . سنأخذ واحداً إلى آنّا » .

« أتريدين شيئاً آخر ؟ »

وكانت كاروسل تدور وأرجوحة تهتز ، وكان الأطفال يركبون أحصنة مبرقعة ويتهزهزون في أشكال تشبه الإوز والمراكب متشبثين بالشكائم ويدورون حول ألواح عليها صور الجن والأقزام والأعشاب البحرية ويتأرجحون بين المرايا والشاشات المرصعة باللؤلؤ ، وأما الشبان فكانوا يقومون بالألعاب البهلوانية ويصرخون فوق السوق كأنّهم يستغيثون .

« أتريد الدوران في الكرسي أو في القارب ؟ » سأل الوالد .

« في الكرسي — على حصان » أجاب هانز .

ولوّح الأب والأم كلما دار أمامهما . وصوت الأرغل تعالى ومديرو الموسيقى الخشبيون هزّوا أيديهم ، والساعة دقت ، والكتل التي تدور توقفت ممّا جعل الأحصنة والإوز والمراكب تهتز .

« هل أنت دائخ ؟ »

« أبداً » .

« أتريد قطعة من الحلوى أم خبزاً ؟ » سأل الأب .

«كيس المعجزة » أجاب هانز .

« حكي بلا معنى — ولكن أعطه واحداً » ، قال الأب للفتاة الواقفة خلف الطاولة .

«آمل ألا تكون قد تخيبت » قالت الأم .

وكان في الكيس قطعتان من الحلوى وقشاط ساعة معدني

على حلقة مطّاطية .

« كم هي الساعة ؟ » سأل هانز .

تطلع الوالد إلى الساعة وقال : « إنّها السابعة — إن ساعتك متقدمه خمس ساعات . فنحن سنكون في البيت قبل السابعة بكثير ! »

تطلعت أمّي إلى المدينة التي حججنا إليها . ثم انطمست الأبراج خلف التلال .

« لقد كان جميلاً ورائعاً » قالت الأم .

وحيث توارى الشارع في الأفق بانت الشمس كرة برتقالية نصفها مظلم كسراج في الليلة الأخيرة من الصيام ، وساق أبي كأنّه يحاول المسير في الشمس مدة طويلة . ومن حقول القمح هبت أنسام دافئة ، غير أن ظلال الأشجار المرتمية من الغابة على الشارع جلبت معها برودة المساء . فرطوبة الطحلب قد انتشرت في الهواء ، والضباب صعد من المروج .

« هل يحترق شيء ما ؟ » سأل الوالد .

كل منهم شمّ بأنفه وساق الوالد بطيئاً حتى كان باستطاعة المرء المسير بمحاذاته .

«كلا ، ما من شيء يحترق » قال الوالد وضغط على البنزين .

والتفتت أمي وقالت : « لماذا لا تعتمر قبعتك ؟ »

« أُحبّ الريح » أجاب هانز .

« ولكن ربما أصابك الزكام » .

« ضع القبعة على رأسك حالاً » قال أبي بصرامة .

ظهرت القلعة التي دمرتها حرب الفلاحين على الجانب الآخر وأصبح كل شيء معروفاً فانطلقت السيارة بأسرع ممّا كانت عليه .

« سُقْ ببطء » قالت أمي . « لسنا بحاجة للعجلة لأنّي قلت لآنّا ما يجب أن تطبخ » .

« نصل تماماً عند العشاء » قال أبي « فهل الأكل طيب ؟ »

« يوجد قطعة لحم وسَلطة لوبياء . »

« آمل أنّها لا تحرق اللحمة » قال أبي .

انحدرت الشمس بسرعة وبانت كقبعة مبتلعة صندوقاً صغيراً للتوفير . وارتفع القمر من سماء ملوّنة بالزرقة والخضرة ، كقطعة حديديّة كادت الشمس تذيبها .

ولمّا صعدت السيارة تلّة ، ارتفع الدخان من المبرّد فتوقف أبي وخرج ورفع غطاء المبرّد فاندفع اللهب عالياً .

« اخرجوا ، اخرجوا ! »

تشقلب هانز وأمه في الحفرة ، ومن السيارة سمع انفجاران متلاحقان تكاثف بعدهما الدخان الأسود .

وماع المبرّد في اللهب وتنقط الزيت والبنزين على العجلات

والشارع حيث وصلت النار والتهمت كل شيء .

« ما سنفعل ؟ » صرخت الأم إلى الأب الذي اختبأ في الجانب الآخر من الطريق . رفع ذراعيه وتركهما تنزلان ببطء . « لا شيء ، لا شيء مطلقاً . فما من ماء هنا ، وحتّى لو وجد الماء فما من فائدة الآن ، لأن المحرك قد انفجر » .

« يا إلهي ، يا إلهي ! » ولولت أمي .

« باستطاعتنا فقط رؤية ما يجري » ، قال الأب « أليست اللهبة جميلة ، يا هانز ؟ »

كانت لهبة زرقاء وصفراء ، لهبة تدفىء كنار من القش في الخريف .

وتطاير الشرر إلى الزجاج فتكسر وارتمت الشظايا الأولى على المقاعد .

« الفرش الجيد » قالت الأم .

« سنشتري سيارة جديدة » قال الأب .

« ولكن كيف نصل إلى البيت ؟ » سألت الأم . « فبعد قليل يحل الظلام » .

« إلى البيت ؟ ربما نروح في سيارة ما — هذا إن لم يزل بالإمكان مرور سيارة في هذه المنطقة » .

دار أبي حول السيارة وضحك قائلاً : « إنّنا الآن حجّاج حقيقيّون » .

وقف بجانب أمي ووضع ساعده على كتفيها .

وعندما ذهب ثانية إلى الجانب الآخر همست الأم بأذن هانز : « إنّه لم يلعن ولو مرة واحدة . وهذا نتيجة الحج . الرحمة » .

ترجمة : فؤاد رفقة

العصفور

بقلم : جرهارد كرامر

جاوز التاسعة عشرة من عمره ومع ذلك لم ترسل له فتاة واحدة أيَّ خطاب . ولكنه اليوم . . وعند عودته من المدرسة . . وجد لأوّل مرّة في حياته خطاباً تفوح منه رائحة نفّاذة حلوة تُذكر برائحة الورد . . من أرما كان الخطاب . . أرما التي تعرَّف عليها لفترة قصيرة أثناء الإجازة . . وفي الخطاب موعد لقاء . . اليوم بعد الظهر .

تعارفت أسرته على أسرتها أثناء الإجازة بإحدى المناطق الجبلية ، وتحابت الأسرتان وتصادقتا وقامتا معاً بعدة رحلات في الجبال . ويوم الجمعة الماضي عادت الأسرتان سويّة في نفس القطار وإلى نفس البلدة . . وفي القطار وقف بجانب أرما ، يتطلعان سويّة من نافذته .

وقبل أن يصل القطار قرر أن يُهدي إليها الكتاب الوحيد

الذي اشترك مع أبيه في قراءته أيّام الرحلة . . وعندما شكرته أرما أراد أن يدعوها إلى لقاء ثان . . ولكن الجرأة لم تواته .

واليوم . . وبعد ثلاثة أيّام من ذلك . . ها هو خطاب منها . . خطاب معطر . . وعطره نفّاذ يذكر برائحة الورد . . خطاب يحقق له أمنيته وحلمه .

وجلس يقرأ سطور الخطاب القليلة ثم يعيدها حتى سمع صوتاً يناديه ، فقام ونظر إلى مجموعة أسماكه يتأملها . . الماء بدأ يفقد صفاءه وأوراق النباتات اصفرت . كان ينوي أن يستبدل النباتات بأخرى ثم يغير الماء بآخر رائق صافٍ . . ولكن لا بأس فلتنتظر الأسماك حتى الغد !

وخطا إلى الحجرات المجاورة يحمل في يده خطابه . . حتى قارب غرفة المائدة فأخفاه بعناية في جيب سترته .

وما إن فرغ من التهام طعامه حتى اعتلى دراجته وأسرع يخترق المدينة وشوارعها حتى عبر القنطرة التي تعلو النهر ووصل إلى مطلع تعذّر عليه صعوده بالدراجة . . فترجل وسار على قدميه . . أمامه إذن نصف ساعة يسيرها على قدميه بين القصور والبيوت الريفية ذات الحدائق المبسوطة التي سرى إليها جفاف الخريف .

هناك . . في مكان ما يقطن والدها . . وهنا على شاطىء النهر العريض توجد منطقة المقابر . . المنطقة التي ورد ذكرها

في الخطاب !! ومع أنه قد عاش منذ طفولته في هذه البلدة وعرف شوارعها وخبر ضواحيها إلا أن قدميه لم تصلا إلى هذه المنطقة . بل لا تتعدى معرفته بها مجرد الرؤية من الشاطىء الآخر .

قطع الطريق خلال الحقول ثم ركب دراجته مخترقاً القرية متجهاً نحو الكنيسة حتى وصل إلى المقابر فنزل عنها وأسندها إلى السور النباتي . . وجفف عرقه ومرّ بيديه على شعره .

وارتقى السلّم صاعداً . . وفي تلك الأثناء دقت ساعة البرج أربع دقات . . إنّه الموعد المحدّد في الخطاب .

عبر بنظره حديقة المقابر . . ولكن الفتاة لم تكن هناك . . فتوقف لحظة بجوار السلّم يتأمل شوارع القرية . . ثم صعد إلى المقابر ثانية وبدت له الكنيسة محاطة حتى حافّة سقفها المنحدر بزهور بريّة حمراء مشتعلة .

نظر إلى ساعته . . ثم مضى يتأمّل اللوحات التذكارية المكتوبة . . بعضها عمل الزمن على محو كلماته وطمس معالمها . . بعض باقات من الورد كانت ساقطة على الأرض فأعاد رفعها ووضعها ثانية مكانها . . وظل في سيره حتى انتهى إلى أشجار الكستناء والزيزفون ذات الظلال الوارفة . .

احتمى بظلال الأشجار ومضى يمدّد بصره إلى النهر البعيد متأملاً شواطئه الخضراء ، وانتقل ببصره بعد ذلك إلى

المراعي المجاورة وكان الصيف بألوانه القوية الزاهية يشتعل فيها .

وسمع رنيناً دفع بصره فجأة إلى المدخل . . فرأى فتاته ترتقي السلّم وهي تنظر إليه . . واتجه كلاهما نحو الآخر بسرعة ، وكان يدوس الأرض بقدميه فوق أوراق الأشجار وفروعها المدلاّة . . وفجأة . . حلّق طائر رمادي اللون على ارتفاع قليل من الأرض متجهاً صوب الفتاة . . ثم انحرف خائفاً هارباً واختفى فجأة كما ظهر . . وكأنّ الأرض قد ابتلعته .

توقف عن المسير . بينما استمرت الفتاة تقترب منه ، وعندما وصلت عنده ومدت يدها تصافحه سألها بلهفة : هل رأيت هذا الطائر ؟ قالت : نعم ولكنه اختفى فجأة .

فقال : غريب ، أليس كذلك ؟

ولكن أرما لم تصغ إليه ، بل أومأت بعدم اهتمام وقالت إنها تريد أن تذهب إلى مقهى السراي فالكعك هناك ممتاز كما أنّهما يستطيعان الرقص أيضاً .

بدت أرما وهي واقفة بجانبه أطول منه قليلاً وأكبر سنّاً ، نحيفة القوام رشيقة لطيفة ، تلبس رداء أزرق عليه سترة بيضاء ضيّقة وفي يديها قفّاز من الجلد الأزرق .

. . وتنقّلت عينا الفتى في الحديقة فلمح المكان الذي اختفى فيه الطائر . . وكان عليهما الآن أن يتوجها فوراً إلى المقهى المذكور . ولكنه صاح فجأة « لحظة واحدة » ثم أسرع بضع

خطوات في الطريق الطويل بجانب المقابر .

ظهر الآن أين اختفى الطائر . . الطائر الرمادي الذي اختفى فجأة وكأن الأرض قد ابتلعته . فهنا وسط الطريق سور ضخم من الحجر الرملي أُقيم منذ أمد بعيد لتصريف مياه الأمطار التي تنحدر من الطرق العُليا . وخلف السور الذي لم تنل منه الأيّام حُفَر في مسافات متباعدة غير متساوية تملؤها الأعشاب الشوكية . . وفي واحدة من هذه الحفر استكان الطائر دون حراك .

بدا واضحاً أن هذا الطائر قد حُبس داخل هذا المكان لا يمكنه مغادرته !

اعتدل الفتى واقفاً واتجه إلى «أرما» التي كانت في هذه الأثناء قد اقتربت منه « ها هو الطائر . انظري كيف بقي مكانه دون أية حركة ! ! ! غريب أمر هذا العصفور » .

ونزل على ركبتيه مرة أخرى ومد ذراعه خلال الصخور والأشواك . . ولكن كانت ذراعه أقصر من أن تطوله . . فسحب يده نافد الصبر واصطدم معصمه بالصخور .

وعلى أريكة بمجاورة جلس الفتى ليستريح ومر بيديه الاثنتين على شعره يزيحه إلى الخلف ثم نظر إلى أرما وكانت واقفة بجواره تومىء إليه وقد بدا عليها أنها غير قادرة على تمييز أي شيء خلال هذه العتمة .

وتساءل الفتى بحيرة : « ولكن كيف نخرج هذا الطائر ؟ يدي قصيرة لا تطوله وهذه الصخور الملعونة التي تحول بيننا لا يمكن رفعها . . لقد اختلط عليّ كل شيء ! »

ولم تجب أرما وظلت صامتة . . ولكنها صرخت فجأة إذ رأت قطرات الدم تسيل من معصمه . فأخرج منديله ليربط يده بينما جلست بجانبه تساعده . . وداعب عبيرها الوردي النفّاذ خياشيمه . . وهنا فقط تذكّر الخطاب وتذكّر أنه يجب عليه أن يشكرها ، فابتسمت أرما ابتسامة خفيفة .

ثم دقت ساعة البرج خمس دقات . . وما إن سمعتها أرما حتى نهضت واقفة وأعلنت أنها يجب أن ترحل فليس أمامها غير ساعتين لتعود إلى منزلها .

ولكنه عاد فتساءل : « وكيف نترك العصفور ؟ »

ولكنها كانت قد اتجهت نحو البوابة خارجة ، فتبعها وكرّر نفس السؤال . فأجابته : « إنه فعلاً أمر سيء . . ولكن الطائر مثل الإنسان يخضع لقدره . . وربّما كان الموت جوعاً أهون عليه من أن تفترسه القطط » .

— « الموت جوعاً ! لا . اسمحي لي . . إنّه لأمر فظيع » .

ونزلا السلم ثمّ اخترقا البوابة . . ورفعت أرما دراجتها . . كما أخذ هو دراجته . . ولكن ما إن أمسكها بيديه حتّى ألقاها مرّة ثانية على السور وعاد يقول وقد تهدج صوته :

ـ لا . . هذا محال . لقد خطرت لي فكرة . . لديك شبكة صيد الفراش . . أعيريها لي من فضلك .

وتردّدت أرما قليلاً ، ولكنّها لم تقل غير أنّها سترحل . وجلست فوق مقعدها على الدرّاجة التي انحدرت سريعاً على الطريق الجبلي إلى أسفل دون أي مجهود منها . . بينما ظلّ هو ينظر إليها حتّى اختفت . . وحاول أن يمسك درّاجته مرّة أخرى ليتبعها ولكنه تركها ثانية .

وهبّت الريح دافعة أمامها الأوراق المتساقطة وكأنّها تزيحها على الجانبين . بينما جلس الطائر مكانه لا يقوى على الحركة . « بشبكة صيد الفراش كان من الممكن إنقاذه » . وعاد ثانية يفكّر في أرما ثم في مدرّس القرية . . ربّما لديه هذه الشبكة ! !

جال بنظره فيما حوله يتفحص الأشياء دون جدوى . وسقط بصره على فرع طويل لين خال من الورق فجدله ولف الجزء الأعلى اللين على شكل طوق . . وربط منديله من أركانه الأربعة في هذا الطوق . .

وبعناية كبيرة مدّ يده بالفرع ثمّ أمال الطوق قليلاً فوق الطائر . كان الموقف أليماً وعصيباً بالنسبة له وللطائر . . فالطائر مذعور ينتفض هنا وهناك وعاجز عن الطيران يتخبط في هذا الجدار وذاك حتى أصيب بجروح خطيرة هدّت كيانه

وتركته هامداً بلا حراك . هنا فقط تمكنت الشبكة التي صنعها الفتى من الإطباق عليه وجذبه بعناية إلى الخارج . .

وانتفض الطائر بضع انتفاضات أخرى محاولاً الخلاص من المنديل ، ولكن ضربات جناحيه المكدودة كانت أضعف من أن تصل به إلى هدفه . وظل الشاب يجذب الطوق إلى الخارج بعناية كبيرة وحرص بالغ حتى تمكن أخيراً من إخراجه . فرفع المنديل برفق وأطبق يديه بحنان قابضاً على العصفور بأصابعه الثلاث غير ضاغط عليه حتى لا يزيد من آلامه . . ووضع العصفور في جيب سترته . . . ورقد الطائر مستكيناً وكأنه قد فارقته الحركة . .

خيّم الظلام . . ودقت ساعة البرج . . فتنبه الفتى إلى أنه قد تأخر . . فأسرع بخطواته فوق الطريق المعشب المغطى بالأوراق الجافة حتى انتهى إلى الخارج فامتطى درّاجته التي انحدرت به في الطريق « ترى هل تنتظره أرما أسفل الطريق ؟ »

وعاد إلى البيت وحيداً وصعد إلى حجرته وهناك أخرج العصفور من جيبه يتأمله . إنه مغمض العينين . . وباءت كل محاولة لفتح جفنيه بالفشل . . إذن فالعصفور أعمى . . ولذلك اصطدم بالصخور ! وقرّب الطعام والشراب في وعاء صغير من منقار الطائر الأعمى المسكين الذي التقط بشراهة عجيبة تلك اللقمات الصغيرة المغموسة في اللبن . . ووضع العصفور

في القفص .

وفي الصباح استيقظ العصفور نشيطاً صائحاً مصفقاً بجناحيه يطلب الأكل والشراب الذي امتدت به يد مخلصة داخل القفص .

وحمل الشاب القفص بالطائر إلى الشمس .. وفي ضوء النهار رأى بين جفني الطائر قشوراً ، فلمعت في خاطره فكرة قام لتوّه ليجربها ، وعاد وفي يده قطعة من القطن مبللة بالبابونج يمسح بها جفني الطائر المغلقين .

وفي تلك الأثناء دق جرس الباب وأحضرت الخادم لفة صغيرة وضعتها على مكتبه .. وخطا نحو المكتب ممسكاً بالعصفور في يده .. إنّه خط أرما .. إنّه يعرفه .. نفس الخط الذي كتبت به الخطاب المحفوظ في جيب سترته .

أعاد العصفور إلى القفص وأمسك اللفة بيديه المرتعشتين وفكّ الخيوط الملفوفة حولها .. ثمّ فتحها .. إنّه الكتاب الذي أهداه إليها منذ ثلاثة أيّام .. لم يكن باللفة أيّ خطاب .. بل لم تكتب له حتى سطراً واحداً .

ولا نعرف كم بقي الكتاب في يده .. ولكن فجأة صاح العصفور صيحات متهللة قوية وازدادت حركته بين جوانب القفص صاعداً .. وقد التمعت عيناه في ضوء النهار .. لقد انفتحت عيناه .

وبيد قوية واثقة أمسك الشاب بالعصفور الضعيف . .
وفي عناية ورفق وحنان ظل يتأمّل رأسه الرمادي الفاتح . .
وأمام نافذة الحجرة انفسحت أصابعه الثلاث القابضة عليه قليلاً . .
قليلاً . فأفلت العصفور مختفياً في قمة إحدى الأشجار .

عاد الشاب إلى مكتبه وتناول الكتاب بين يديه يقلّب صفحاته . . فوجدها قد محت بعناية تامة كلمات الإهداء التي وجّهها إليها . . ثم أعاده إلى مكانه ثانية بين مجموعة كتبه .

ثم اتجه دون تردد إلى وعاء الأسماك يجدد ماءه ويغير نباته .

ترجمة : سمير التنداوي

غناء العناكب

بقلم : هاينريش شيرمبك

كان عمّي « بالدوين » رجلاً ميسور الحال غريب الأطوار ، يبدو عليه الشذوذ . وكانت فيلّته المشرفة على الانهيار والقائمة على حافة المدينة مكدسة بالكتب والمجاميع من قبوها حتى طابقها الأعلى . كانت في حوزته مجموعة عناكب يحسده عليها كل متحف للتاريخ الطبيعي في العالم . وكما يجمع غيره من الناس طوابع البريد ، فقد اتجه هو — شأنه في ذلك شأن العنكبوت — إلى عقد خيوط شبكة واسعة الاتصال مع جميع الأقطار في العالم ، أدّت به إلى أن يضم لصناديق عرضه الزجاجية كل نموذج ينقصه من أنواع هذا الحيوان المقزز الكثير الأرجل .

يأتي بعد ذلك في الدرجة الثانية شدة اهتمامه بالكتب ، غير أنّه لم يكن يعنى بدانتي وشكسبير بقدر ما تشغفه حوادث الإجرام الشهيرة في كلّ العصور ولدى جميع الشعوب .

وكان يفخر بامتلاك كل أثر يستحق الذكر في الأدب العالمي إلى حدّ ما ، ويعالج الجريمة والكشف عنها ، ابتداء من « كنز رامبسينيت » ، تلك القصة الفرعونية التي تصور السرقة على نحو دهي ، إلى « أعمال السيد أوفرار » .

وفي ذات مرّة دعاني للحصول على نصيبي من الهدايا في ليلة أحد أعياد الميلاد . وكان آنذاك عجوزاً للغاية ، وقد ارتدى قلنسوة من المخمل على شعر رأسه الخفيف الرمادي المفضض ، وتدثر بروب منزلي طويل مضرّب ، عليه رسوم ورد مطرزة . وبعد أن حمّلني بالهدايا سألني عمّا إذا كنت أرغب في مشاهدة مجموعة عناكبه . ورغم أنّي كنت أكره تلك الكائنات الطويلة الأرجل أشد الكره ، إلاّ أنّي لم أتجاسر على رفض هذه الحظوة لا سيّما وأن أمي قد رمتني بنظرة جانبية تشير إلى الميراث الضخم ، الذي كان عمي يملك التصرف فيه في وصيته على النحو الذي يشاء ، موصية إيّاي بإبداء أقصى قدر من الاهتمام والكياسة بإزاء شطحاته الغريبة أحياناً . إذن رحت أكظم تقززي ، وأُظهر من باب الإذعان آيات الإعجاب بتلك الحشرات الكريهة ، حيث كان قد صعد عمّي بي إلى مقر مجموعة العناكب .

وفي وعاء زجاجي حرص العم على أن يفرد مكاناً خاصاً لنموذج شديد البشاعة من هذه الحشرات . كانت هذه الحشرة

في حجم السرطان الصيني المشعر ، ذات أرجل طويلة يكسوها شعر كثيف ، ورأس باهت كلون العظم يبرز منه بشدة فكّا الافتراس ، فضلاً عن عينين تبرقان بكآبة ، ونقشة الثعبان المتعرجة تغطي ظهرها ، الذي اتخذ هيئة البيضة . وكان لا بد لذهني أن يتجه إلى كتاب « العنكبوت الأسود » لجوتهلف ، ورحت أسأل عمي عن اسم هذا الحيوان البشع . « إنها أرجيلا كانتاتريكس شفارتسينزيس » هكذا جاءتني إجابة عمي التي كفتني تماماً . فقد كنت أتعلم اللاتينية في المدرسة ، ممّا جعلني أفهم معنى هذا الاسم . ولا بد أن يكون عمي — الذي كان اسمه « بالدوين شفارتس » — هو الذي اكتشف هذا الحيوان ، ومن ثم صار له — على سبيل المكافأة — حق تسميته .

إلا أن كلمة « كانتاتريكس » تعني « المغني » . ولعل هذه الصفة كانت لغزاً بالنسبة لي . إذ لم أسمع قطُّ أن العناكب تعرف الغناء ، وسألت عمّي أن يشرح لي ذلك قائلاً : « هل هي تغني فعلاً ؟ » فهزَّ رأسه علامة الإيجاب بينما بدت عليه مسحة من الحزن ، وعلى عينيه شاحبتّي الزرقة مسحة من التأمل ، وكأنّما ذكرياته شاردة في أقاصٍ بعيدة . لكنه بالقرب من زاوية فمه اهتز وجهه اهتزازة غريبة باكية ، شبيهة لما يحدث لطفل لمسته عصا سحرية فتحول فجأة إلى شخص عجوز . وكان قد سبق لي أن لاحظت أحياناً هذا الاضطراب

المختلط بالحزن على ملامح وجهه ، وإن كنت لم أُوفَّق أبداً إلى إيجاد تعليل له . « أجل ، أجل ، إنها تغني في لحظة زواجها. » هكذا قال عمي بصوت مضغوط ، ثم راح يردف هامساً في انفعال : « ولكن هذه الحشرة بالذات ظلت بلا زواج ، وبالتالي ، لم أسمعها تغنّي . على أنّها لا تقتصر على الغناء ، فهي تنفث السم أيضاً . » ونظر إليّ بعينين كعيون المرضعات حين يروين قصة خرافيّة مفزعة لصغار الأطفال .

كنت قد سمعت قبل ذلك عن العناكب العملاقة السامة ممّا جعلني لا أتأثّر كثيراً بهذا القول إلى الحد الذي ربّما كان ينتظره عمي . « غير أن السم لا يتكون في غدد فكيها إلا عندما تشم رائحة عطر من عطور المسك تميّز به نوع معيّن من الزواحف المعادية لها أشد العداء . ومن الممكن اليوم تحضير هذا السم صناعيّاً من مشتقات بعض القلويات ، حيث يكفي جزء من مائة من قطرة منه بحجم رأس الدبوس لقتل إنسان . غير أن ذلك لم يكن معروفاً عندما اكتشفت الـ « أرجيلا كانتاتريكس » منذ خمسة وعشرين عاماً خلت . أمّا عطر المسك هذا فكان محط إقبال كبير في عالم الأناقة النسائية في ذلك الحين . تصور ! » وتطلع إليّ بنظرة ثاقبة تكاد أن تكون متعطشة للذة القسوة في تفحصها ، ممّا جعلني أصدق فجأة كل ما كان يروى من أقاصيص تدور حول ولع

عمي « بالدوزين » بالحكايات البوليسيّة — « . : تصور عندما كان لا يعلم أحد آنذاك بخاصية إفراز العناكب للسم ، وتصادف أن اقتربت واحدة من أولئك النسوة الأنيقات بعطرها ذي عبير المسك الذي يفوح من شعرها أو ثيابها ، من وعاء العنكبوت ، فإذا بها تُلدغ في ظرف ثوان ، ولا يتوفّر لها الوقت بعد ذلك كي تفكر في علة اندفاع العنكبوت إليها كرمح خاطف ، ثم نكوصه على إثر ذلك بنفس القدرة من السرعة إلى وعائه » . وجدت هذه الحالة المستبعدة غير قابلة الحدوث في الواقع ، حتى إنّي نظرت إلى عمي في شفقة تشوبها الحيرة . فهو إذن مصاب بجنون العناكب ، ويعلم الله وحده أثر اطلاعاته على غرابة تفكيره على هذا النحو ! وساورني إحساس أكيد بالضيق في حضرته . ومن دار الجيران توافد رنين أغنيات عيد الميلاد التقليديّة . أمّا أنا فلم أرَ منذ ساعة سوى عيون العناكب المحنطة ببريقها الكئيب بدلاً من بريق الأضواء وابتسامات الأطفال . وبدلاً من أن اسمع قصة السيد المسيح ، كان عليّ أن أنصت إلى ما يتعلّق بعنكبوت « أرجيلا المغنية » . وهكذا مرّت بي أغرب ليلة عيد ميلاد في حياتي .

عندما كنت أفكّر في ذلك فيما بعد ، كان يتراءى لي أن هنالك صلة ما بين هاتين الهوايتين : تجميع العناكب والقصص البوليسيّة ، وإن كنت لم أدر كيف أتى اهتمام

عمي « بالدوين » بها ، وهو الأعزب الوديع المتحفظ ، الذي لم تصدر عنه البتّة أي شارة سوء .

ولمّا صرت أكبر سنّاً ، وبدأت أهتم بالأدب ، سمعت من جوانب عدّة أن عمي « بالدوين » كان أديباً فحلاً . وأنّه وإن كان لم ينشر شيئاً إلاّ أنّه ظل خلال عشرات السنوات مشغولاً بتأليف عمل كبير ، يحمل عنواناً غامضاً هو : « غناء العناكب » . وقد تسرّب إلى الأسماع أن هذا العمل لا يدور حول دراسة في علم الحيوان ، أو يتناول إحدى السمفونيّات ، وإنّما يعرض أكمل رواية بوليسية على مرّ العصور . فهو لا بدّ أن يكون فنيّاً محكم البناء على أساس رياضي منطقي ، وممحصاً إلى أقصى درجة ، حيث يلخّص في حادث رمزي جوهر كل الجرائم التي اقتُرفت في الماضي ، والتي ستُرتكب في المستقبل . وحتى الآن لم تقع عين إنسان ، خلا عيني عمي «بالدوين» ، على صفحة واحدة من هذا العمل المعجز ، وإن كان لا مجال للشك في وجوده ، تماماً كما أنّه لا مجال للشك في وجود مجموعة العناكب الخاصة بالعم « بالدوين » . فقد نما هذا المؤلف في صمت ، ولا شك أن اليوم آت ، ذلك اليوم الذي سينتشر فيه مجد عمي « بالدوين » في أنحاء المعمورة كافة ، بفضل هذا السِّفر .

على أنّه قبل أن تتحقّق آمال العائلة في هذا الصدد ، وجد

الخادم العجوز « فيلتسيتاس » ، في صباح أحد الأيّام ، عمي « بالدوين » ميّتاً وهو جالس على مقعده الوثير . كان في هندام كبير شأنه دائماً عندما كان يذهب لحضور مناسبة أو احتفال مهيب . وجدت أمامه على المكتب المصنوع من خشب الكابلي أمبولة زجاجيّة صغيرة مشطورة ، من ذلك النوع الذي يُستخدم في حقن المورفيوم . وإلى جوارها رسالة يفصل فيها — للأحياء — الأسباب التي دعته إلى أن يختار الموت بمحض مشيئته . فقد انتهى من عمل حياته : « غناء العناكب » ، وبذا أصبح وجوده غير ذي معنى وهو لا يريد أن يضن بملكاته أطول من ذلك على جيل الشباب .

لم يصدق أحد هذه المبررات النبيلة ، وبالرغم من البحث الدائب عن نص « أغنية العناكب » ، فلم يُعثر عليه . أو أنّه بعث به قبل موته الاختياري إلى أحد الناشرين ليطبعه ؟ لم يصلنا — كورثة — من أيّة دار للنشر ما يفيد بذلك خلال الشهور التالية . كما أن وصية العم « بالدوين » قد أدت إلى خيبة أمل كبيرة لعائلتنا ، إذ إن الجانب الأعظم من تركته الضخمة المستثمرة في شكل سندات مالية قد أصبح من نصيب وريثة مجهولة تعيش في الخارج ، ويقال إنّها ابنته . كان ذلك أمراً مثيراً للغاية ، فلم يكن يعلم أحد حتّى ذلك الوقت بوجود هذه الابنة . أمّا منفذ الوصيّة ، وهو كاتب عدل مبجل في مدينتنا ،

فلم يخرق ما عهد به إليه من إتمام للسر بكلمة واحدة . ولعله من الواضح أنه لا يمكن أن تكون العقود المبكرة التي قضاها عمي « بالدوين » في الخارج ، في رحلاته العلميّة في ما وراء البحار ، قد مرت بسلام تام ودون بعض الحوادث الطارئة ، كما كان الاعتقاد سائداً حتى الآن ! ترى هل يرجع ميله إلى جمع المؤلفات ذات المضمون الإجرامي إلى ذلك ؟ .

مرّت الأعوام ، وظلّت « أغنية العناكب » مفقودة الأثر . على أنّي نسيت أن أذكر أن عمي « بالدوين » قد جعلني — أنا ابن أخيه المحبب إلى نفسه — وريثاً لداره ومجاميعه . لم تكن العناكب تعنيني ، فأهديتها بسرعة إلى أحد المتاحف . واقتصرت على الاحتفاظ بعنكبوت « أرجيلا كانتاتريكس شفارتسينزيس » ، على سبيل المباهاة بأسرتنا . وظلت الدار أثناء دراستي الجامعيّة خالية ، حيث كانت ترعاها وتدبر شؤونها « فيلتسيتاس » ، تلك الخادمة العجوز . وإذ عدت لأنكبّ على بعض الدراسات اللغويّة في هدوء تام ، كانت العجوز الوفيّة قد تضعضعت تماماً ، ولم تلبث أن رقدت في فراش الموت .

وفي الليلة السابقة لرحيلها إلى العالم الآخر طلبت أن تتحدث إلي من مخدعها ، وقالت لي : « أيّها السيد الشاب ، لن أعيش حتى الغد . وقبلها أود أن أنصحك بشيء . لقد وهبت مجموعة العناكب لأحد المتاحف ، وفعلت بذلك خيراً . وإنّي

لطالما كرهت تلك الحشرات البشعة . إلاّ أن تلك الحشرة الكئيبة لا زالت فوق ، داخل صندوقها الزجاجي . هبها بأقصى سرعة لأي متحف ، فهي تجسد الروح الشريرة لهذه الدار . أنت تنظر إلي وملؤك العجب ، أيّها السيد الشاب ! دعني أروي لك القصة : كان عمك في شبابه يعرف فتاة جذابة من عائلة طيّبة ، وعدها آنذاك بالزواج . وكنت في ذلك الوقت أدبر له شؤون بيته في نابولي ، حيث كان يعمل هناك في معهد لبحوث الحيوان . وكان يذهب لبعض الزمن في رحلات علمية إلى جزيرة « سيليبس » ، — هكذا اسمها على ما أعتقد — وفي هذه الجزيرة كان يحط رحاله ويقيم فترة من الوقت . وأخذت « سيمونيتا » — تلك الفتاة — تتردد عليَّ لتسألني عن أحواله وأخباره ، إذ إنّه لم يأتها منه أيّة رسالة . وكانت شابة على قدر رائع من الجمال ، ممشوقة العود ، سمراء ، أنيقة الملبس على الدوام ، وكانت تستعمل عطراً مثيراً ، لم أقف قطُّ على سرّه . وعلمت أنّها كانت حاملاً ، تنتظر عودة عمّك كل يوم بصبر نافد . وعندما عاد أخيراً أحضر معه مجموعة جديدة من العناكب ، استحوذت عليه هواية العناية بها وتربيتها لدرجة أنّه لم يعد يهتم بما عداها . وكانت تلك الحشرة الكريهة ، ذات الاسم الغريب ، وهي الموجودة بحجرة المجاميع — أعلى الدرج — أيضاً من بينها . بل إنّها كانت محط ولعه . وكانت آنذاك لا

تزال في قيد الحياة ، ذات منظر بشع عندما تقبض بذراعيها المشعرتين الطويلتين على فريستها ، وتمتص الدم منها ببطء . وكان عمك يدّعي أنّ في مقدورها أن تغني كعروس البحر . ثمّ يجلس متنصّتاً أمام صندوقها الساعات الطوال . ولم يكن يولي « سيمونيتا » بعض ما تحتاجه إليه فتاة في مثل وضعها من الاهتمام . حقّاً ، لم يبد عليه وكأنّه لاحظ ذلك . وكان لها دماء نساء الجنوب الحارة ذات العاطفة الجيّاشة . وعندما غادر عمك الغرفة ، إذ ناداه أحد مساعديه ، انقضّت بكل غلها وغيرتها على أوعية العناكب ، تريد أن تنتقم صراحة من تلك الكائنات الكريهة ، لما حل بها من إذلال . ولم تمض ثوان معدودات حتى كانت تتلوى وتتقلص على الأرض بينما تلفظ أنفاسها الأخيرة . وارتسمت علامات الألم والتنفخ على وجهها حتى أصبح من الصعب التعرف عليها ، وواتتها آلام الولادة ، وخرجت إلى العالم فتاة صغيرة ، ولدت مبكرة . لا تسألني كيف كان منظرها ! مشعرة كعنكبوت كبير ، مجعدة كوطواط . ولطالما بدا لي أن بقاءها في قيد الحياة كان أعجوبة . أمّا أمها فماتت أثناء الوضع . مسكينة ، مسكينة يا سيمونيتا » .

وقفت إلى جوار المخدع الذي كانت تستعد فوقه العجوز المتعبة لملاقاة الموت ، وقد ارتعدت فرائصي من أثر ما سمعته منها . وتذكرت ليلة عيد الميلاد التي قضيتها في جناح العناكب ،

والأحاديث الغريبة التي اعتقدت آنذاك أنّها مجرد خيالات مجنون .

« عدني أنّك ستبعد هذه الحشرة الكئيبة عن الدار. » هكذا همست العجوز بآخر جهد فيها ، واستمرت : « ثم تزوج . فلا بد أن ترن هنا من جديد ضحكات الأطفال العالية في أحد الأيّام . »

« وماذا حدث لعمي ؟ » هكذا تجاسرت على سؤالها للمرة الأخيرة .

« لقد أمضى وقتها شهوراً طويلة في الحبس بتهمة القتل تحت التحقيق . إلى أن لاحظ أحد معاونيه عطر « سيمونيتا » ، وأجرى بعض التجارب على العناكب ، خرج منها بما يدل على براءة عمك . ولكن في استطاعتك أن تقرأ ذلك فيما بعد ، على نحو أفضل بكثير ، في « غناء العناكب » .

سألتها وقد تملكني الاضطراب : « أين إذن أغنية العناكب هذه ، ذات اللغز المغلق ؟ »

« في مكان ما بالمكتبة ، بين الروايات البوليسية العتيقة . ابحث عنها ! » وراحت العجوز في لجة من الهذيان ، بحيث لم أستطع بعدها أن أتبين منها شيئاً أكثر . ومنذ تلك الليلة وأنا أقضي الليالي العديدة باحثاً في مكتبة عمي دون أن أعثر فيها على أثر لـ « غناء العناكب » . وأحياناً ما كانت زوجتي

تشاركني في البحث والتفتيش . فهي ابنة «سيمونيتا» المذكورة، وربّما كانت أكثر استطلاعاً مني للعثور على تلك المخطوطة الأسطورية . فكم هي مشوقة لأن ترى أباها ، الذي لم تره قطّ ، وقد اجتاز عتبة الأدب الخالد . أمّا عني ، فلم يعد هذا الأمر يهمني بتلك الدرجة ، منذ أن زرتها ذات مرة بإحدى المدارس الداخلية الأجنبية ، وكانت مفاجأة سارة بحق ، إذ تبينت أنّها لا تماثل عنكبوتاً ، ولا خفاشاً ، وإنّما هي على أروع صورة وأجمل آية . وفي إحدى الأمسيات اكتشفنا سويّة في كتاب حوى أبياتاً لشعراء من الصين ، هذه الكلمات :

للعناكب غناء
لا تضاهيه موسيقى السماء .
ما سمع أحد في هذا الوجود
غناء العناكب الودود !
. . . إلا الراقد في التابوت .
ضفرت بنفسها حبلاً عليه تهتز
تمرّ عليه قرب الأذن
فتنسج ملحمة رقيقة من نغم
وترنيماً أبديّاً من لحن .

ترجمة : مجدي يوسف

الرابح

بقلم : هربرت هيكمن

عكفتُ مدة طويلة على مراقبة الرجل المسن ذي الوجه الشبيه بوجه الطائر وذي البذلة الرسميّة القديمة ، الذي كان يجلس جامداً أمام مائدة اللعب . كان يوزّع الماركات على المربعات بأصابعه الجافّة وقد انحنى الجزء العلوي من جسمه كالمصاب بالربو ، وراح يسعل قليلاً كأنّه يريد أن يسعل في فكره ، ويطبق شفتيه الرقيقتين ولا يرمش قط إذا خسر أو ربح . وكانت عيناه تبرزان قليلاً إلى الأمام ، ولم أكن أعرف على وجه اليقين هل كانتا تتابعان العمليّات الجارية على مائدة اللعب أم لا . أمّا يداه فكانتا تقومان بعمل ما تتطلّبه اللحظة من اللاعب ، وكانتا الجزء الوحيد الذي يتحرّك فيه وإن كانت حركتهما مقتضبة تبدأ من المعصم ، حتّى بدا ساعداه كما لو كانا متجمّدين ملتصقين بجسمه ، وخشيت أن تؤدي حملقتي فيه دون تردّد إلى إثارة انتباهه ، ورجعت قليلاً إلى الوراء حتّى

أشمل جماعة اللاعبين بنظري على نحو أفضل . كانت هناك إلى جانب الرجل المسن ذي الوجه الشبيه بوجه الطائر فتاة جميلة جمالاً غير مألوف ، كانت عندما تمد يدها للعب تنحني فوق كتف اللاعب الساكن تحملق كل مرّة في وجهه الجامد بل وتتعمّد أحياناً مسّه بذراعها العارية . تعجّبت من مثابرتها وهي تحاول بكثير من الحيل النسائيّة أن تلهيه . كانت تلعب باستخفاف وتخسر فتصيح صيحات غيظ . ويبدو أنّها لم تكن معتادة هذا النوع من عدم الاكتراث ، فلم يكن للرجل المسن ، الذي تبيّنتُ لتوّي أنّه يضع وردة بيضاء في عروة الأزرار ، عين لشيء آخر إلا اللعب ؛ وكان في هيئته سكون أثار انفعالي . كنت أفهم الفتاة حق الفهم لأنّني كنت أحس بدافع يغريني على اصطناع حركات في وجهي لأُخرج بها اللاعب من سكونه ، وكان النجاح الذي حققته يتلخّص في أن الآخرين على المائدة ابتسموا لي مشفقين علي واعتبروني خاسراً رديئاً لا يريد أن يُبقي على محنته لنفسه . أمّا الفتاة فرجعت خطوة إلى الوراء ونظرت إلى وجهها في المرآة نظرة فاحصة . ثم فقدتها من بصري بعد قليل وأتى إلى المائدة من أتى وخسر من خسر ، وكانت خسارتي في اللعب قد حولتني منذ وقت طويل إلى مراقب . وبينما أنا أهمّ بالانصراف تحرّك اللاعب فجأة حركة مندفعة وأشار إلى رئيس المائدة أنّه يريد

أن يلعب في المرّات التالية على رقم ١٧ .

بدا صوته كأنّه يعرج من بين شفتيه الرقيقتين إلى الخارج ، وانتفخ خدّاه الورقيّان ، وتبين الناظر إليه أن الكلام يتعبه . وضغط بيديه على قرص المائدة وترنّح في جلسته فأسند ظهره إلى مسند الكرسي . كانت حركاته تتميّز بالتعالي والفتور في آن واحد، وكان فتوره شديداً حتى إنّني ظننته نائماً . أمّا عيناه فكانتا مركزتين على الكرة بنظرة مغناطيسيّة لا قدرة لي عليها . ونظرت إلى الساعة وتتبعت عصبيّة رئيس المائدة المألوفة . وفجأة انتزعني همس الناس من شطحاتي : فقد وقفت الكرة على رقم ١٧ . وظل وجه اللاعب جامداً كالقناع وانفرجت شفتاه قليلاً في سخرية . وتصورت الماثل أمامي مومياء مصرية تجلس ساكنة على العرش فوق هذا الكرسي المتعب ، أو إلهاً مصريّاً غارقاً في نوم أبدي من أثر أعشاب التحنيط — ينتصر على كل إثارة .

واندفعتُ مجرداً من كل تفكير إلى الأمام وقد تملكني فضول شديد ورحت أدفع الناس بكوعيَّ دون أن اكترث بهم أو ألتفت إلى غضب ضحاياي . كانت أعين اللاعبين الآخرين تضطرب رموشها الثائرة ، وكانت شفاههم تهمس بغير صوت ، وكانت أيديهم تتداخل كالحيوانات الهائمة ، أمّا هو فقد ظلّ ساكناً جامداً .

واستمر اللعب ، وتصاعد دخان طمس بعض معالم هيئته فلم أعد أستطيع أن أتبيّن هل كان يبتسم أو لا يبتسم. ولا بدّ أنّه ربح مرّة أخرى لأن حشداً أكبر من الناس تزاحم خلفه وأخذ يتهامس في غموض. ورجاه البعض دون ما حرج أن يقرضه مالاً . ولكنّه لم يتحرّك . كان يتخذ وضعاً فيه صدود لا يحتاج فيه إلى تحريك يديه . وتبيّنت ما أغاظني وهو أن حملقتي به لم تكن تضايقه على الإطلاق . وظل يربح ويربح . وكان الآخرون مبهورين لدرجة أنّهم نسوا أن يضعوا أنصبتهم ، فارتبك رئيس المائدة وقال بصوت أعلى من المألوف : « ضعوا أنصبتكم في اللعبة ! » ولاح صوته كأنّه تحدٍّ . ولم يتحرّك اللاعب — كان يحملق في الكرة الراقصة بعينين مجردتين من النظرات . وانضممت إلى صفّه دون أن أقوى على تغيير ذلك ، فتملكني شعور بالرعدة والقوّة والإحساس بالذات والرغبة في الهجوم . ووقفت على أطراف أصابعي حتى أجيد النظر . وربح ، وخرّت امرأة مغشيّاً عليها . وأقبل المدير مسرعاً تتطاير أطراف جاكتته الطويلة وهو يحك يديه من فرط اضطرابه ، فتبادل نظرة قصيرة مع رئيس المائدة ثم وقف أمام الرابح الصبور .

وقال : « أهنئك يا سيدي الجليل . كم يسرني أن تتفضل بمرافقتي إلى مكتبي . »

وكنت لا أزال واقفاً متسمراً في الأرض من تأثير نظرات اللاعب الذي لم يُظهر أدنى تأثّر. وأعاد المدير كلامه بصوت أقوى، وهو يظن أن الرجل ثقيل السمع، ولكنّه لم يتلق ردّاً. ورأيته يضع يده بحركة تعبر عن التقزز على كتف الرابح. وكان خجلاً من هذا التبسط الذي تطلّبه الموقف. ولكنّه لم يستطع أن يتكلّم لأن اللاعب انزلق ببطء مضحك من الكرسي إلى الأرض. وانحنى أحدهم على الرجل الذي وقع، ولم أستطع أن أرى ماذا فعل به، ولكنّه طفا بعد برهة فوق حافة المائدة وقد ظهر على وجهه التعب وقال وقد تطاير بريق من أركان عينيه: «لقد مات الرجل.» وأقفل أزرار جاكتته ودفع الفضوليين إلى الخلف. وشد المدير شعره من فرط انفعاله وأخذ يقطع المكان جيئة وذهاباً، فقد صعب عليه أن يصدق ما حدث، ولاذ بكلمات من الحكمة المنتقاة: «لا يمكن أن يكون هذا حقيقة.»

لم يكن هناك مجال للخطإ في القول بأن اللاعب قد مات، فقد انفتحت عيناه واسعتين، وبرزت حلّته إلى الخارج، وارتفع حذاؤه شاكياً إلى أعلى. ودعيت الشرطة ولم يزد ما استطاعت فعله عن تقرير الوفاة ومعرفة شخصيّة الميت وبياناته.

أمّا الربح الذي كان استنتاجاً من انفعال المدير مبلغاً ضخماً، فقد رؤي أن يستشار أحد المحامين بشأنه. ولا شك

أنّه سيبقى إلى الأبد من الأسرار هل كان اللاعب قد مات عندما ربح أو هل مات من الانفعال عندما رأى تيارات الحظ تنساب نحوه . أمّا المال فقد وُجِّه — كما نشرت الجرائد فيما بعد — لأعمال البر لأن الرابح لم يكن له أقارب . كذلك تبين أنّه كان قد استعار الحلة في اليوم نفسه، وأنّه كان يقيم في حجرة بائسة على السطح ، وأنّه كان يؤوي قطة أصبح عليها الآن أن تسعى وحدها على صيد الفيران .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

في هذا الثلاثاء

بقلم : فولفكانك بورشرت

في كل أسبوع ثلاثاء واحد .
في كل عام اثنان وخمسون ثلاثاء .
وأما في الحرب فأيّام الثلاثاء عديدة .

تمرّنّ هذا الثلاثاء في المدرسة على الحروف الكبيرة . وكانت للمعلمة نظارة سميكة الزجاج وبدون حروف .

كان زجاجها سميكاً لدرجة أن عينيها لم تكادا تظهران .

اثنتان وأربعون فتاة جلسن أمام اللوح الأسود وكتبن بحروف كبيرة : كان عند فريتز الهرم كأس معدنية . تصل طلقة مدفع « برتا » الضخم حتّى باريس . في الحرب كل الآباء جنود .

ومدت أولاّ لسانها حتّى لامس رأسه أنفها ، وهنا نبهتها المعلمة : لقد كتبتِ كلمة « حرب » خطأ يا أولاّ . هكذا تُكتب كلمة « حرب » . كم مرّة علمتك إياها ! وأخذت المعلمة

كتاباً ووضعت خطاً تحت اسم أُولا . حتى غدٍ ستكتبين الكلمة عشر مرات بصورة مرتبة ، هل فهمت ؟ نعم ، أجابت أُولا وفكرت : « يقلعْ لها ولنظارتها » .

وفي ساحة المدرسة كانت الغربان تلتهم فُتات الخبز .

وفي هذا الثلاثاء ترقّى الملازم إهلرز إلى رتبة قائد فرقة .

عليك أن تنزع هذا الشال الأحمر يا سيد إهلرز .

عفواً أيّها الماجور !

بالضبط يا إهلرز . فهذا غير مستحب بالنسبة للفرقة الثانية .

هل سأكون في الفرقة الثانية ؟

نعم ، وهذه الفرقة لا تحب ذلك ، لا تقدر أن تحتفظ بالشال فيها لأنها نظامية إلى أبعد حد . فالشال الأحمر يجعلك تظهر ناعماً . إن هرمن هسي لم يحمل مثله .

هل جُرح هسي ؟

لا ، بل سجل نفسه مريضاً . إنّه غير مبسوط ، فمذ صار رئيساً أصابه المرض ، وهذا ما لست أفهمه ، وفي ما عدا ذلك فإنّه كان دائماً نظامياً . وأنت يا إهلرز حاول جهدك أن تنسجم مع القطعة ، لأن هسي درّب الجنود جيداً . وانزع الشال ، واضح ؟

طبعاً ، حضرة الماجور .

وفي طريقه إلى الفرقة الثانية نزع الملازم إهلرز شاله الأحمر ، ووضع سيكارة في فمه . قائد الفرقة ، إهلرز ، قال بصوت عالٍ .

وهنا أُخذت له التحيّة .

وفي هذا الثلاثاء قال السيد هانزن للآنسة سفرين : يجب أن نبعث إلى هسي شيئاً ما ، يا عزيزتي ، شيئاً للتدخين أو للأكل ، ربما كتاباً أدبيّاً أو قفازات ، فالشتاء ولا شك لاذع ، فأنا أعرف ذلك . شكراً .

ربما هلدرلن ، يا سيد هانزن ؟

هذا جنون ، جنون ، يا عزيزتي . لا ، مهلاً ، ربما ويلهلم بوش ، فهسي يفضل الأسهل ، وأنت تعلمين كم هو يحب الضحك . يا إلهي كم باستطاعته أن يضحك .

نعم ، إنّه يحبّ الضحك ، أجابته الآنسة سفرين .

وفي نفس الثلاثاء نُقل الرئيس هسي على حمّالة إلى مكان التنظيف حيث كتب :

إنْ جنرال أو رامي قنابل يدويّة
فشعره يُجَزّ .

انحلق شعره ، وكان للممرض أصابع نحيلة وطويلة ، كأرجل العنكبوت ، وكانت عقدها محمرة قليلاً . وفركوه بمادة كيماويّة وتلمست الأصابع العنكبوتية نبضه وسجل في كتاب

ضخم : الحرارة ٤١,٦ . سرعة النبض ١١٦ . غائب عن الوعي ويُشتبه بإصابته بالحمى . وطبق الكتاب الضخم .

وحمل الممرّضون الحمالة إلى فوق . وأثناء صعودهم الدرج تدلّى رأسه خارج الغطاء وتأرجح شمالاً ويميناً عند كل درجة . وأثناء هذا كان يضحك على الروس . وكان أحد الممرضين مزكماً .

وفي نفس الثلاثاء دقت السيدة هسي الجرس على جارتها . ولما انفتح الباب هزت أمامها الرسالة : صار رئيساً . إنّه رئيس وقائد فرقة ، كما يقول . والحرارة هناك أربعون تحت الصفر . واستغرقت الرسالة تسعة أيام حتّى وصولها ، وعليها كتب : إلى زوجة الرئيس هسي .

رفعت المكتوب عالياً ، غير أن جارتها لم تتطلّع إليه . أربعون تحت الصفر ، قالت لنفسها ، المساكين ، أربعون درجة تحت الصفر .

وفي نفس الثلاثاء :

سأل رئيس أطبّاء الجبهة الطبيب المسؤول عن مستشفى الأمراض السارية في سمولنسك : كم مريضاً كل يوم ؟

نصف دزينة .

شيء لا يطاق ، أجابه رئيس الأطبّاء .

نعم ، شيء لا يطاق ، قال له الطبيب المسؤول .

ولم يتطلّع أحد بالآخر عند هذا القول .

وفي نفس الثلاثاء .

لعبوا قطعة الناي الساحر لموزارت ؛ وكانت السيدة هسي قد حمّرت شفتيها .

وفي نفس الثلاثاء .

كتبت الممرضة إلزا إلى أهلها : بدون الإيمان بالله لا يستطيع الإنسان احتمال هذا الوضع . ولكنّها وقفت عندما دخل الطبيب المسؤول ، الذي بدا منحنياً كأنّه يحمل كل روسيا في القاعة .

هل يجب أن أعطيه شيئاً بعد ؟ سألته الممرّضة .

لا ، أجابها الطبيب المسؤول ، قال هذا بصوت منخفض كأنّه يخجل من نفسه .

ونقلوا عندئذ الرئيس هسي خارجاً إلى حيث الضجيج . الضجيج باستمرار . لماذا لا يتركون الموتى يموتون براحة ؟ كل لحظة هذه الضجة المرهقة ، قال هذا واحد ، وغنى جاره أغنية نهايتها :

إنّها تثلج على فرقة المشاة .

وتنقل الطبيب المسؤول من فراش إلى آخر . كل يوم ، نهاراً وليلاً ، طوال النّهار ، طوال الليل ، طاف منحنياً كأنّه يحمل كل روسيا في القاعة ، وفي الخارج همدر ممرضان بحمالة

فارغة . الرقم أربعة ، قال أحدهما الذي كان مزكماً .

وفي نفس الثلاثاء .

جلست أُولاّ مساء تكتب في دفترها بحروف كبيرة :

في الحرب كل الآباء جنود .

في الحرب كل الآباء جنود .

كتبت هذا عشر مرات ، بحروف كبيرة ، وكل مرّة كان الحرف « حـ » في كلمة « حرب » أشبه بالحفرة .

ترجمة : فؤاد رفقة

بلاغ ضد مجهول

بقلم : كلاوس نونيمن

في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين بالضبط في الصباح المبكر دقّ جرس البيت وظل يدق بلا انقطاع على نحو وقح يذكّر بالعمال وسعاة البرق ، بهؤلاء المخلوقات ذوي الأنوف الحمراء الذين يؤمنون بقوّة عضلاتهم .

وحاولت كاتينكا — التي سنسميها فيما بعد رغم احتجاجها اليسير السيدة الدكتورة — ألا تكون موجودة، ووضعت المخدة الخالية على أذنها اليسرى ، ولكن دقّ الجرس عاد قويّاً كالمنشار . وتناولت كاتينكا معطف البيت وتنهدت وبحثت عن حذاء القدم اليمنى ورفعت شعرها بأصابعها المتباعدة إلى أعلى على هيئة تل هش .

وراحت تجر قدميها بصوت عال تؤكد تعبها وهي تعبر المدخل ، عندما دقّ الجرس للمرة الثالثة . وحفزها هذا التصرف الذي لا داعي له على الإطلاق على التشجع على وصم

الرجلين الواقفين خلف زجاج الباب المغبَّش بالوقاحة والنذالة ، ولكنّها ما لبثت أن احمرت خجلاً كما ينبغي في مثل هذه الأحوال .

كانا شرطيين .

وسأل أحدهما وكان يلبس حذاء ذا رقبة طويلة بعد أن دخل المسكن : « هنا الدكتور أوستروت ؟ أين التليفون ؟ »

فقالت وهي تعدل فتحة ثوبها لأن الشرطي الثاني ، وكان على ما يبدو ذواقة مهتماً بالإنسانيّات – تطلع إليها : « هل حدث شيء ؟ » وابتسم الشرطي ابتسامة الحلاق وقال : « لا بدّ أن نرى أولاً . ونحن شرطة النجدة لا أكثر من ذلك . »

وقال الشرطي ذو الحذاء الطويل : « أين التليفون ؟ »

كان التليفون في حجرة النوم . وقالت كاتينكا إنّه في حجرة النوم ولكن من الممكن نقله .

فقال ذو الحذاء الطويل : « لا داعي لذلك . » وسار إلى السرير . كانت أُذناه متأججتين ، وكان حاجب عينه اليسرى يشبه فرشاة أسنان خشنة . وأدار رقماً تبيّنت كاتينكا في رعب أنّها تعرفه . وقال في لهجة الآمر : « لا ! أريد أن أتكلم مع السيد الدكتور شخصيّاً . » كان صوته حسناً . وقالت كاتينكا لنفسها في ارتباك : هذا رجل يمكن أن يشترك الإنسان معه حتى في سرقة الخيول ، ولكنّه شرطي يسعى لعكس ذلك.

قال : « السيد الدكتور أوستروت ؟ هنا الشرطة . أنا الشرطي الأول هرمن — صباح الخير . نحن في مسكن السيدة زوجتك . تماماً ، هل تسمعني ؟ لا ، أرجوك أن تستمع إلي يا سيادة الدكتور ! لا بدّ أن أحقّق في موضوع يهم الشرطة . »

ونظر إلى حذائه الطويل المغبر ، ونظر إلى السرير المزدوج الدافىء ، ونظر إلى زجاجة العطر ماركة « كري دامور » ورأى مرآة يد ڤينيسية وقطعة من الشوكولاته المقضومة والبيجامة مكرمشة ملقاة على الأرض . كان موظفاً رسميّاً ، أتى من دوريّة الليل في السيارة الباردة ، وكان رجلاً ، لذلك أثار هذا الجوّ انفعاله .

« أين كنت في الليلة الماضية ، يا سيادة الدكتور ؟ »

وصاحت كاتينكا غاضبة : « هنا بطبيعة الحال . بجانبي . هنا . بجانبي . »

وأشارت إلى المخدة الثانية وأحست بالحرج . وابتسم الشرطي المهتّم بالإنسانيّات ودّيّاً وقال بصوت منخفض : « لا تعبإي يا دكتورة فإننا نرى الكثير . »

فقالت بصوت قارص : « هذا واضح . » ولاحظت أن قوامها يحظى بالإعجاب فقوي صوتها . ولكن الشرطي ذا الحذاء الطويل لزم الجانب الموضوعي وهو يتكلم في التليفون : « هل هذا احتمال ؟ ألا تلاحظ شيئاً يا سيادة الدكتور ؟

كيف ذهبت إلى العيادة إذن صباح اليوم ؟ هكذا . آه . سأقول لك : أولاً بدون بطاقة شخصيّة . وثانياً بدون رخصة السيارة . وثالثاً بدون رخصة قيادة . هذا ما لا شك فيه على أيّة حال . إذن لم تكن تلاحظ شيئاً يا سيادة الدكتور . الشرطي الأول هرمن ، عربة شرطة النجدة رقم أربعة . هر — من . هاء راء . حسناً يا سيادة الدكتور . لا بد ، يا سيادة الدكتور ، إنّه النظام ، تماماً . لا بد كما قلت من قبل . ستأتي إذن . اتفقنا ؟ ستأتي ، ولكن على الفور ، إلى قسم بوليس المنطقة . » وفجأة اغتاظ من شيء لأنّه قال بصوت خفيض : « قسم البوليس الثالث ! ألا تعرف قسم البوليس الخاص بالمنطقة التي أنت فيها ؟ لا . حسناً . انتهينا يا دكتور أوستروت . » ثم ضحك بصوت عالٍ وقال متهللاً في التليفون : « عليهم أن ينتظروا ، مرضاك ، وليس ما يجري اليوم شيئاً عاديّاً يحدث كل يوم . »

وخارت قوى كاتينكا وتوقّعت شرّاً وصاحت : « سأتولاهم أنا . سأقوم أنا بأمرهم . »

« السيدة زوجتك ، لحظة من فضلك ، يا سيادة الدكتور ، زوجتك تقول إنّها ستتولاهم عنك . موافق ؟ حسناً . انتهينا . »

ووضع السمّاعة وحملق في المنظر القروي الشاعري التجريدي فوق السرير المزدوج واضطرب . ثم قال : « لقد

عرفت ما في الأمر يا دكتورة ، في الليلة الماضية فتح بعض اللصوص عربتكم بقصد السرقة ، وألقوا كل ما كان في حقيبة الطبيب تحت كشك استراحة عمّال البناء. كل ما كان في الحقيبة . لم ينقص منه على ما أعتقد إلاّ . . . »

ونظر إليها . كانت كاتينكا كالميتة ، قالت : « أنا أعرف ، ولكن زوجي لا يعرف . »

وابتسم الذواقة قائلاً : « لا يعرف ؟ »

وقالت كاتينكا : « لا يعرف ، كنت أريدها مفاجأة له . أين الأشياء الآن ؟ »

فردّ الشرطي الإنساني مكتئباً : « في قسم البوليس الذي تتبعونه . فقد وجد عمّال البناء كل شيء في الصباح الباكر . وكل شيء موجود الآن في قسم البوليس . هذا كل ما في الأمر . »

وقال الشرطي ذو الحذاء الطويل : « تعالي حالاً إلى هناك . ولكن عليك أن تلبسي قفازاً أثناء قيادة السيارة ، أتفهمين ؟ »

وقالت كاتينكا وهي تتصنّع النباهة : « طبعاً . »

وقال الشرطي ذو الحذاء الطويل : « كذلك لا تلمسي العربة والباب والمقابض وعجلة القيادة إلاّ بالقفاز . وعسى ألاّ يكون زوجك قد أفسد كل شيء ، لأنّنا نجمع آثار بصمات

الأصابع . هذا ما ينبغي لك أن تعرفيه . » وضحك لأن النساء غبيّات غباء عجيباً . كذلك ضحك الحلاق ، ولكن على نحو أفضل ، لأنّه قال وديّاً : « هه ــ الأمر كذلك . »

وقالت كاتينكا : « نعم » ثم خفضت رأسها .

وقال الذواقة : « وهناك دم على كل شيء . وهذا يثير الاضطراب . »

وأحسّت كاتينكا كأنّما دُفنت . ولم يكن للحظات التالية وجود على الإطلاق . قال الرجلان إن الجوّ بارد جداً في الخارج ولكنّه فيما عدا ذلك جو جميل ، وأومأت كاتينكا برأسها . ثم راحت تعبث بدرج الكومودينو ، ولكن الرجلين قالا معاً إنّهما لا يدخنان وانصرفا .

كان منظر قسم البوليس الثالث مثل منظر قسم البوليس الثاني ، على حائط الواجهة عُلّقت خريطة المدينة وقد جُملت بعلامات خاصة وبدبابيس حمراء . وكانت هناك صورة زفاف أميرة موناكو ملصقة على باب دولاب أحد محبي الفنون ، وتقويم محلى بزهور رسمها أحد المشوهين بقدمه ، موضوع فوق صندوق التليفون الذي كان من حين لآخر يحدث أزيزاً ويطلق نوراً متقطّعاً من نافذته الصغيرة الصفراء الداكنة فيذهب إليه أحد رجال الشرطة ويقول : هنا قسم البوليس الثالث ، وينتهي الأمر على ما يرام . وكان هناك بجانب الباب الكبير مشجب

علّق عليه مفتاح دورة المياه ، وكتب عليه بخط كبير جميل احتاج بلا شكّ إلى عمل يوم بأكمله : « للموظفين أثناء العمل فقط . » ووقفت كاتينكا ونظرت إلى المفتاح .

وقال مأمور القسم : « آه ، يا سيادة الدكتورة ! » وقدم إليها كرسيّاً بأدب . وكفَّ الجميع عن العمل وراحوا ينظرون إليها . وابتسمت كاتينكا ، ولكن أحداً لم يشاركها الابتسام ، فبدأت تنتظر عنيدة ، ورأت أمامها فوق قرص المائدة البائسة طفاية سجائر مصنوعة من الباكليت ، وطبقاً للبيره مسروقاً أو ما أشبه ذلك . أمّا شجرة الصبار التي كانت على رفّ النافذة فكانت ظمأى تنظر حزينة إلى الخلاء ، وكانت أرضية قسم البوليس مرشوشة بماء كثير كالمعتاد عندما يكنس الرجال مكاناً ، كذلك كان الموظفون قد بللوا شعرهم بالماء وأكرهوه به على النظام ، إلاّ واحداً كانت تفوح منه رائحة حلوة . ولاحظت كاتينكا على الفور أن هذا الرجل لا قيمة له هنا .

وقال مأمور القسم : « تعالي معي إلى هناك . هذا كل ما تسلّمناه من عربة النجدة . »

وفكّرت كاتينكا أن صاعقة ستنزل وتقضي عليها توّاً ؛ ولكنّها لم تكن في السينما . وقالت متهللة : « عظيم جدّاً . أعتقد أن كل شيء موجود . كذلك جهاز قياس ضغط الدم . فهو أغلى ما فيها .. »

وقال مأمور القسم : « هذا صحيح . » كان زوج أخته طبيباً وكان يفهم شيئاً من هذا . وأطل الجميع إلى داخل الحجرة. وكان في الحجرة المجاورة اثنان آخران فكفّا عن الإفطار رغم أن الوقت كان وقت الإفطار الرسمي ، وهكذا كان ثمانية من رجال الشرطة العاملين ينظرون إلى كاتينكا .

واصطنعت كاتينكا التواضع وقالت : « هه ، ثم ماذا ! » كانت تحس كأنّها أميرة تتوسل إلى السادة اللصوص . وفجأة شعرت بدبوس من دبابيس حزام الأرداف يضغط على جسمها . ثم شعرت بأنّها تريد أن تتمخط ، وأن تتمخط في الحال لأنّها كانت قريبة من المدفأة العتيقة ، ودارت عيناها بحثاً عن حقيبة يدها في حجرة الشرطة ، وقفز مأمور المركز إلى هناك فأحدث ذلك لحسن الحظ تياراً من الهواء . كان رجال الشرطة قد رتبوا كل شيء على المنضدة بجوار المسطرة وأعدوا الأوراق للملفات على نحو فني . كان البوليس الألماني قد غنم غنيمة عظيمة في ذلك اليوم . وتبيّنت كاتينكا على الفور أن هناك صورتين مفقودتين ، وأن هناك دماً على كل ما عثروا عليه ، وتطور الأمر على نحو ما يتطور في الأفلام السينمائيّة . كان قسم البوليس الثالث في حالة مضطربة غير عاديّة . ولكن كاتينكا لم تمت لتوها !

وقالت بلهجة المرأة المخلصة الشجاعة التي ترتدي زيّاً

رسميّاً : «موضوع الدم موضوع واضح يا حضرات السادة ! »

وقال مأمور القسم : « لماذا واضح ؟ » وأقبل يحمل آلة كاتبة من حجرة الشرطة كانت نموذجاً جميلاً لآلة الكتابة في الثلاثينات ، وأخذ يلهث ، ثم أزاح بكوعه قبعته الرسميّة عن المائدة ووضع آلة الكتابة .

وأضافت كاتينكا موضحة : «وهذه أنبوبة زجاجيّة أستطيع التعرف عليها . » وتناولت قطعة من الزجاج بين أصابعها : « هذا دم كبد خاص بزوجي . »

وسأل مأمور القسم ثائراً : « لماذا دم كبد ؟ » وطبع بالآلة الكاتبة على قسيمة الاتّهام ما يلي : «بلاغ ضد مجهول » . وأتى موظفو القسم جميعاً . كان هذا دم كبد إذن ، ونظروا إلى اللون الأحمر ثم نظروا إلى الصور .

وقالت كاتينكا ضاحكة : « هذا مصطلح من المصطلحات التي نقولها بيننا . هذه العينة تسمى في العيادة دم كبد ، وهو دم عادي ، إن شئتم ، وأظن أنّه كان في درجة برودة كافية بالسيارة . أليس كذلك ؟ »

وأومأ الموظفون برؤوسهم في أدب موافقين ولم يفهموا شيئاً .

وقالت كاتينكا : « ونحن نرسل هذا الدم إلى معمل التحليل

ضمن فحوص الكبد . واضح ؟ وفي بعض الأحيان يترك زوجي الدم في السيارة ليلاً وفي اليوم التالي يسلمه للمعمل . ولكنّه لا يفعل هذا إلا في الشتاء . أمّا في الصيف فنحفظ الدم في الثلاجة . »

وقال مأمور القسم متجهماً : « الدم في الثلاجة ؟ » فقالت كاتينكا : « ألا تحب أن تأكل سجق الدم بارداً من الثلاجة ؟ » وكسبت المعركة .

وأحس قسم البوليس الثالث بالخيبة . كان الدم دم كبد عادي . وأخذ مأمور القسم يكتب المحضر على الآلة الكاتبة وكان كثيراً ما يمد إصبع السبابة ليفرق الحروف عندما تتشابك : نسجل أولاً كل ما عثرنا عليه ، بما في ذلك خرطوم حبس الدم وحقنة الكالسيوم المتعفنة التي كانت لا تزال ملآنة تثير الرعب وتنثر رائحة العيادات الرهيبة . وكان الرجال جميعاً يقفون في الحجرة أو يتصنعون الجلوس لعمل رسمي . وقدم أحدهم للسيدة الدكتورة سيجارة ، ولكن الجو لم يكن على ما ينبغي . وجاء دور الصور ، رباه ! الصور ! وعبثت كاتينكا بالسيجارة على حافة الطبق المسروق وقالت في نفسها : لو ثبتُّ الآن ولم أصرخ أو أولول فسأقدم لنفسي فطيرة أناناس وأضع عليها كميّة مضاعفة من القشطة !

وقال مأمور القسم : « حسناً . » وسحب شريط آلة

الكتابة العتيق في عروتيه وأضاف: « والآن نسجل كل ما عثرنا عليه وهو ما تجدينه أمامك يا سيادة الدكتورة . فإذا كانت حقيبة الدكتور قد تضمنت أشياء أخرى غير هذه هنا فمعنى هذا أنّها مفقودة . »

وقالت كاتينكا : « هذا صحيح . » والتمست الحماية في عيني الرجال : كان ثلاثة منهم ينظرون إلى الأرض ، وكان أحدهم يتجه إلى التليفون ، أمّا الرجل الذي صفف شعره بالبريانتين فكان يبتسم .

« ماذا ترين يا سيادة الدكتورة ؟ هل ضاع شيء ؟ لا بدّ أن نذكر الصورتين في المحضر ، لقد كانتا في الحقيبة ؟ »

وقالت كاتينكا : « نعم . ولكن هذه الصور لا علاقة لها بالموضوع . »

وقال مأمور القسم : « لا ، طبعاً . » وحاول أن يمحو فاصلة كتبتها الآلة خطأ . « لا بد أن نسجّل كل ما لم نعثر عليه . ولا بد أن نهتم بصفة خاصّة بالصغائر وبالتفصيلات فنحن بحاجة إليها في بحثنا عن الفاعل ، أليس كذلك ؟ »

وقالت كاتينكا وقد تبللت عيناها بالدموع : « لعلّ هذا لا يعني بالضرورة أن نذكر جميع الصور في المحضر . »

فرد مأمور القسم قائلاً : « بل لا بد من ذلك ، للأسف . »

وقالت كاتينكا : « إذن فأنا أفتقد صورتين ، أحسنُ ما

كان في المجموعة . » وعضت على شفتيها وقالت لنفسها : رباه ما أغباني ! وهذا ما زاد بلطف الشرطة بها .

وأوضح مأمور القسم : « لا بد أن نذكرهما في المحضر لهذا السبب ، يا سيادة الدكتورة . » كان المأمور صبوراً . وأضاف : « لقد طبعتِ صوراً عند مصور في مدينة أخرى غير مدينتنا . »

وتمتمت كاتينكا : « طبعاً في مدينة أخرى . »

« وقد وجدنا النيجاتيفات الستة في الحقيبة . ولكن الصور كانت أربعاً ، أمّا ظرف الصور فمكتوب عليه : ست صور من كل نيجاتيف واحدة . هل هذا صحيح ؟ »

وقالت كاتينكا : « نعم » كأنّها ترد على القسيس أمام الهيكل وهو يعقد قرانها .

« عظيم . إذن فهناك صورتان مفقودتان . صورتان ضائعتان . هذا شيء يسرنا يا سيادة الدكتورة ، يسرنا أن هناك شيئاً مفقوداً . صورتان . لا بأس . فشيء أحسن من لا شيء . »

ونظرت كاتينكا إلى الشرطي الذي صفف شعره بالبريانتين فإذا هو لا يزال يبتسم . وسأل المأمور : « وكيف كانت الصورتان ؟ هل كانتا من نفس الحجم ؟ »

وقالت كاتينكا : « لا ، كانتا أكبر . » ورأت كيف أخذ الرجال يتغامزون ويبتسمون . كذلك كان الشرطي ذو

الشعر الململمّع راضياً مسروراً .

« من أي حجم تقريباً ؟ أو بعبارة أخرى ما مقدار الزيادة في الحجم ؟ »

وتناولت كاتينكا واحدة من الصور المخيفة وكانت الدموع في عينيها : « ربما ، ربما خمسة سنتيمترات . »

« خمسة سنتيمترات من كل ناحية ؟ » وأخرج المأمور ثلاثة حروف كانت محشورة في فتحة آلة الكتابة ثم قال : « لنكتب إذن : مقاس الصورتين المفقودتين حوالي ثلاثين في ثمانية عشر سنتيمتراً ، هكذا ؟ »

وقالت كاتينكا : « نعم » وهيَ تفكّر : « يا لك من غبي ! » وعادت تدخن سيجارة .

وقال المأمور : « كيف نصوغ هذا ؟ » وهرش قفاه ، وفجأة لاحظت كاتينكا أنّه خائف . كانوا كلّهم خائفين حيارى لم يكن لهم أن يفصحوا عما يعتمل في فكر الرجال ، وتلفتت كاتينكا حواليها ورأتهم حولها واقفين . وتصورت كيف وقف الشرطيان عند سريرها . وعلمت كاتينكا أن ما حدث لا سبيل إلى إصلاحه . ودخنت السيجارة الرابعة على الريق فأحست بالشجاعة وأحست بحياتها ، أحست بها رائعة ، فنهضت وقالت بصوت عالٍ يكاد يختلط بشيء من الغلظة :

« اليوم يصادف عيد ميلاد زوجي وأردت أن تكون

الصور مفاجأة له . لا بد أن تفكروا بعقلية البشر يا حضرات السادة ، أرجوك أن تكتب في المحضر : كذلك وجدنا أربع صور للسيدة أوستروت كاتينكا تمثلها عارية ، المقاس : عشرون في ثمانية عشر سنتيمتراً :

الأولى : جالسة تتحلى بمجوهرات حديثة .

الثانية والثالثة : كالأولى ولكن واقفة مرّة وراقدة مرّة أخرى .

الرابعة : مثل الأولى جالسة ولكن بدون مجوهرات .

أمّا الصورتان الناقصتان فقد سُحبتا عن نيجاتيفين موجودين وتمثلان السيدة أوستروت المذكورة عارية ، ولكنهما على ورق شاموا مطفى وبحجم . . . »

وبكت كاتينكا . فأخرج المأمور منديله . وهكذا تأكد انتصارها . وبينما راحت تتنهد وتزفر بصوت مرتفع وتمتع الموظفون بشهامتهم حيالها قال المأمور : « لا أجد في هذا ما يضير . هه ؟ »

إذن فالمأمور لا يجد في الأمر ما يضير على الإطلاق .

وسأل : « متى تزوجتِ ؟ » وكان شخصاً لطيفاً جداً .

وقالت كاتينكا : « منذ عامين . ولكن زوجي . . . »

وهمس المأمور : « أفهم مقصدك . » وأحست كاتينكا بأن الشرطة عظيمة جداً .

ثم ضحكت قائلة : « لا ، ليس ما تصورت صحيحاً . »
ونظر الرجال كلّهم منفعلين إلى المرأة الجريئة وقد عقدوا العزم المقدس على أن يسجلوا على نحو خالص شيئاً فظيعاً تتأهب المرأة للإفصاح عنه ، وقالت :

« الأطباء كثيرو الاشتغال بالجسم . تعلمون هذا تماماً ؟ هذا شيء موضوعي . » فأومأ الجميع برؤوسهم موافقين متحمسين . كان هذا أمراً معروفاً : الأطباء كثيرو الاشتغال بالجسم .

وقال المأمور في خيبة : « نريد الآن أن نوقع المحضر . »
وتناولت كاتينكا حقيبتها وفتحتها مضطربة وراحت تعبث بها ، ولكن رجال الشرطة أكدوا لها أنهم لا يدخنون . ثم سلموها الأشياء كلّها بما فيها الصور ، وتحمّسوا في ذلك حماسة بلغت الاضطراب ، وفكرت كاتينكا : ثمانية رجال من قسم البوليس ، اثنان من شرطة النجدة ، وحوالي عشرة من عمال البناء . لمَ لا ؟ فلم أبلغ من العمر إلاّ الثالثة والعشرين ، أم هل ينبغي أن يظلوا جائعين مثل زوجي ؟ ولاحظت كاتينكا أنّها استطاعت أن تحب رجال الشرطة ، حتى ذلك الذي صفف شعره بالبريانتين . ومدت يدها لتحية كل واحد منهم تحيّة قلبية . ولم يكن ذلك شيئاً يحبّه المأمور ويفرح به . وقال في لهجة قاسية :

« سأرافقك إلى السيارة يا سيادة الدكتورة . لقد التقطنا صور البصمات ولكن ذلك لن يفيد كثيراً . »

كان الرجال يحسدون المأمور ، ولم يذهب أحد منهم للرد على التليفون ، وقال المأمور عندما وصل إلى جانب السيارة وقد تملك الخجل عينيه ، فقد كان على أيّة حال موظفاً قائماً بعمل رسمي :

« لن تستردي الصورتين الأخريين أبداً يا سيادة الدكتورة . »

وقالت كاتينكا : « الأشرار ! » ولكنّها فهمت .

« آه ، ولا هذه أيضاً . » وضحك المأمور على الجملة الموفقة التي قالها ثم أضاف : « لن تأخذي الصور ، أعني الصور الكبيرة ! كان عليّ بحكم عملي أن أرى النيجاتيفات فقط ، ولا بد أن الصور نفسها مذهلة . » وتصبب منه شيء من العرق ، لم يكن بهذه الجرأة منذ خطبته .

وقالت كاتينكا وهي تتهلل فرحاً وتلهج بالشكر : « ليس عملك بالعمل السهل . » ومن حسن حظها أن السيارة انطلقت بمجرد أن أدارت المفتاح ، تماماً كما تنطلق السيارات في أفلام الدعاية ، وكانت السيارة تقف رائعة عند زاوية الشارع ، ومرت فترة جميلة بينما كان الشبّاك مفتوحاً ، وعدّلت كاتينكا قفازها حتى اتخذ الوضع المناسب . أما المأمور فكان مفعماً باحترام حزين وقال : وداعاً ، وهو يمد الكلمة ويطيلها

من كل قلبه وينظر إلى كاتينكا وهي تبتعد . وأمّا كاتينكا فوجدت الجو عظيماً . كان بارداً ولكنّه كان عظيماً . كذلك كان الشارع عظيماً . وأحست بالفرح لأنها ستنال فطيرة الأناناس ، وقالت في نفسها : سأضع عليها قشطة مضاعفة ثلاثة أضعاف ؛ وضغطت على آلة التنبيه فزِعة ، فقد اعترضت طريق السيارة قطة ، ولكن القطة وصلت إلى الناحية الأخرى سالمة ، ولو لم تضغط كاتينكا على آلة التنبيه لوصلت القطة إلى الناحية الأخرى سالمة أيضاً .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

لورد جلوستر

قصة قصيرة بقلم : ألفريد آندرش

في منتصف فرانكفورت ، وعلى ناحية ساحة الهاوبتفاخه (واسمها متخذ من اسم لبناية عتيقة كانت تحرس منها المدينة في عصورها الغابرة) من جهة ، وزقاق « بيبر » من الجهة الأخرى ، قام حتى سنوات قليلة مضت حانوت صغير لبيع السجق — أو المأكول الشعبي في ألمانيا . وكان في مستطاع المرء أن يبتاع منه لفافة سجق محمرة ، أو أخرى محشوة باللحم البقري ، أو ثالثة من النوع الطويل ، المسمى « بالفرانكفورتر » ويقف يلتهمها ، وهو مضطجع على حافة المقصف ، بينما يتأمّل الحياة وهي تمر صاخبة أمام عينيه في مركز المدينة .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة من يوم ١٣ يونيو (حزيران) كان نيكولاس واقفاً أمام الدكان ، وأمامه سجقة محمرة على طبق من الورق المقوى ، وراح يدهنها بالخردل ، إذ كانت

أسخن من أن يلمسها .

« طيّبة ، أليس كذلك ؟ » هكذا بادر أحد الرجال نيكولاس ، بعد أن فرغ من قضم قطعة من سجقته ، ثمّ استطرد قائلاً : « ولكنّه كان أجدر بك أن تأخذ واحدة حُمّرت أكثر من ذلك . » فأجابه نيكولاس : « الأمر سيّان عندي » . وطوى المنشفة المصنوعة من الورق ، كي يمسك بها السجقة ، وعاد يقول : « على أي حال ، لا يوجد اليوم مثل ذلك السجق الذي عاصرته . حقّاً ! كان أجدرَ بكَ أن تجرّب ذلك السجق الذي عرفناه آنذاك في بورجوند . »

وردّ عليه الرجل ساهماً : « أجل ، ما كان آنذاك لن يعود » . ثم استطرد يقول متسائلاً بشغف : « ولكنّي لم أسمع قط بذلك الاسم : بورجوند ؟ أين تقع إذاً ؟ »

— « يبدو أنّه لم يعد لها وجود . » هكذا أجابه نيكولاس في اقتضاب ، وراح يتتبّع بعينيه في إعجاب سيارة طويلة ، لبنيّة اللون من طراز « بويك — كابريوليه » بينما كانت تمرّ في زقاق « بيبر » . ثم أردف قائلاً : «كنت هناك منذ عهد قريب ، ولكنها أصبحت تحمل الآن أسماء مختلفة تماماً : لكسمبورج ، بلجيكا ، فرنسا . »

هنا تسرّب الشك إلى نفس محدثه فجأة فقال : « ولكن متى كنت في . . في . . »

– « في بورجوند ؟ » هكذا أكمل له نيكولاس شطر جملته بلهجة يخيّم عليها الدعة والصفاء .

وعاد الرجل يتمتم بصوت مضغوط : « أجل ، متى كنت في . . في تلك الـ « بورجوند » ؟ » عندئذ أجابه نيكولاس : « المرّة الأخيرة في عام ١٤٤٥ . ولكم أودُّ أن أعرف ماذا أصبحت عليه بورجوند . هل تعرف أنت شيئاً عنها ؟ »

وحملق فيه الرجل في دهشة بالغة ، ثمّ قال : « حقّاً ! إن لكلٍّ غزالته ! ولكن غزالتك من نوع غريب بالفعل ! » ودفع القطعة الأخيرة من السجق في فمه ثمّ عصر المنشفة بعصبيّة في يده وهو يردف : « أتريد أن تهزأ بي ؟ في عز النهار ؟ ! »

وتتبّعته نظرات نيكولاس في حزن وهو يهرول إلى الخارج . وبينما ظلّ يمضغ قطعة السجق ، جعل يمر بيده في رفق على سطح المخمل المموّج الذي صُنعت منه سترته ، التي ابتاعها من أحد الحوانيت الواقعة في شارع جوته . إنّه اقتناها لأنّها بلا أكمام . فهي تذكّره بتلك السترة المصنوعة من سلاسل الصلب الدقيقة الصنع ، التي كان يرتديها في موقعة «آزينكور» . ذلك أنّ نيكولاس كان بطلاً مِقداماً في المبارزة بالسيف ، ولطالما كان يفضل الخروج إلى ساحة القتال بسترة من الصلب ليس لها أكمام تعيق الحركة . وابتسم عندما تذكّر كيف أنّه

انتشل المحارب لانكستر ، الذي كان متمنطقاً بلباس معدني من طرف رأسه إلى أخمص قدميه ، وإذ انزلق منه سيفه الضخم انقضّ عليه الفرنسيّون وضربوه ضرباً مبرحاً . وقد دفع نيكولاس إعراضه عن كل غطاء ثقيل ، إلى اقتناء عربة م. ج. صغيرة ذات لون أحمر ، تركها الآن واقفة أمام قهوة « كرانتسلر » الشهيرة ، قبل أن يتعرج الطريق إلى هذا الحانوت المتواضع . وكان ممتلئاً بالفخر والاعتزاز ، إذ إنّ هذا النوع من السيارات من صناعة وطنه ، وبينما هو غارق في ألطف الأفكار ، إذا به لا يشعر لأوّل وهلة أن سيّداً ما كان يوجه إليه الحديث .

قال السيد : « لا مؤاخذة ! أتسمح لي بأن أقدم إليك نفسي ؟ اسمي برنهايمر . دكتور برنهايمر . »

وأفاق نيكولاس ، وقال يقدم نفسه بانحناءة خفيفة : « جلوستر » .

— « يا له من اسم شهير يا سيّدي اللورد ! » هكذا أجابه الدكتور برنهايمر ، واستمر قائلاً : « إذن فلا بد أنك أنت هو الكونت جلوستر السابع ، الذي فُقد أثناء الحملة الفرنسيّة التي سيقت في عهد هاينريش الخامس ، حوالي سنة ١٤٣٠ ، ولم يعثر له بعدها على أثر ، كما أنّه لم يعد بعد ذلك أبداً إلى الجزيرة . . »

وعلق نيكولاس على ذلك في برود : « أجل ، ولكن من أين علمت ؟ . . »

فأجابه الدكتور برنهايمر بابتسامة مترددة : « لم أستطع أن أتجنّب تتبع النقاش الذي دار منذ قليل بينك وبين ذلك الرجل الذي انصرف غاضباً . ولهذا سمحت لنفسي أن أبادرك بالحديث . وعندما تفضلتم بذكر اسمكم ، كان من السهل عليّ أن أدرك الموضوع . » ثمّ أضاف في تواضع : « ولعلّه يعنيكم أنّي اهتممت بعض الشيء بدراسة تاريخ الأسر الإنجليزية . »

أجاب نيكولاس في دهشة بالغة ، وفضول كبير : « آه . . هكذا ! » وتفحص بعينيه الدكتور الذي كان مرتدياً حلّة رمادية بصفين من الأزرار ، وإلى جواره حقيبتاه المكتظتان بالملفات والمؤلفات ، وقد استقرتا على الأرض . وخطر لنيكولاس خاطر جعله يحدث نفسه قائلاً : إن هذا الشخص يذكرني على نحو آخر بكوزانوس ، الذي قابلته عام ١٤٤٠ في ترير ، بعد أن قرأت « دي دوكتا اجنورانتيا » اللاتيني أي سفر « الجهل المتعالم » . وكم راقتني نظريّة المتناقضات في صدر الإنسان . ولكن صاحبنا هذا لا يقوى بدوره على أن يخفيها في سريرة نفسه ، بوجهه الشبيه بسحنة الناسك ، وعيني المغني اللتين تتوسطانه .

في تلك الأثناء كان الدكتور برنهايمر قد تجرع زجاجة كوكاكولا ، ثمّ قال : « ما أشد الحر اليوم في المدينة ! » وأعقب ذلك بأن دفع قبعته المصنوعة من القش إلى أقصى الخلف . ورد عليه نيكولاس مقترحاً : « في إمكاننا أن نرحل سويّة للاستحمام بأي مسبح خارج المدينة ، إن كان وقتك يسمح . . »

ردّ برنهايمر على هذا الاقتراح بالإيجاب : « الأفضل ، بساحة الأستاد الرياضي » . وحشرا أنفسهما والحقيبتين في السيارة الصغيرة ، حتى إذا انعطفا في شارع «كايزر » ، رفع نيكولاس من سرعة المركبة . وعندما مرّا فوق « جسر الماين » قال برنهايمر: «أتعلم أني أستطيع إفادتك فيما يتعلق ببورجوند ؟ فهي قد زالت عمليّاً بسقوط كارل الجسور في حصار نانسي عام ١٤٧٧ » .

وسأله نيكولاس : « ومن يكون إذاً كارل الجسور ؟ »

فأجابه برنهايمر متعجباً : « أولَم تعاصره ؟ لقد كان أهم رجل عرفته بورجوند . ولكنه كان من الناحية العسكرية سيء الطالع في أغلب الأحيان . » وعقّب نيكولاس : « غريب ! إلا أنه من دواعي الأسف أنّي كنت قد توفيت منذ عام ١٤٤٥ » .

— « يا للخسارة ! » صدرت هذه العبارة عن برنهايمر في

لهجة متأسفة مفعمة بالوقار ، ثم أردف : « لقد فاتك الكثير . »
ونظر إلى نيكولاس ذي العود النحيف والبشرة الشقراء ، والمسحة الإنجليزية المميزة ، ثم قال : « ولكنه لا يمكن أن تكون قد عمرت طويلاً . »

قال نيكولاس : « ولكنّي بلغت الخمسين على أي حال . فقد ولدت في الثالث عشر من شهر يونيو (حزيران) عام ١٣٩٥ . إن اليوم يوافق عيد ميلادي . »

– « أوه . . شيء رائع . . أهنئك ! ولكنك تبدو أصغر سنّاً . »

– « لقد أرجعت سني إلى الثلاثين بمناسبة هذه الزيارة . »

اضطر نيكولاس إلى تهدئة السرعة ، إذ اعترض الطريق في زاكسينهاوزن – على الجهة الأخرى من نهر الماين – سيارتا لوري بمقطورتيهما . حتى إذا ما انطلقت سيارة نيكولاس على طول كورنيش « الماين » ، انطلق الدكتور برنهايمر قائلاً : « إنّك تجيد القيادة . »

وأجاب نيكولاس بينما كان ينظر إلى دليل السرعة : « وما هذا ؟ ! . . لقد كانت قيادة عمر أصعب بكثير . . »

فسأله برنهايمر : « ومن هو عمر ؟ »

– «إنه الجواد الذي امتطيت صهوته إلى فرنسا لكي ألتحق بقواتنا المسلحة في عام ١٤١٢ . إنّه من أصل عربي ، حيث

اشتراه والدي أثناء رحلة له في « ترابيزونت » ، وهجّنه مع فرسة من إقليم « فريزلاند » . آه . . لقد أنقذ حياتي بالقرب من أورليان . » ثم أضاف بشيء من التردد : « وهناك اضطررنا لإخلاء المدينة بغاية السرعة ، كما تعلم » . هنا صاح الدكتور : « أورليان ! خبرني ، هل شاهدت عذراءها ؟ »

رمى نيكولاس برنهايمر بنظرة جانبية سريعة يخيّم عليها الأسى ، وقال : « جان ؟ طبعاً . . » وكي يحوّل مجرى الحديث طرق بأصابعه على جريدة « النيويورك تايمز » التي كان قد وضعها في جيب سترته ، وألقى بسؤال : « ترى ، ماذا سيحدث في كوريا ؟ »

— « ماذا عساه أن يحدث ! » هكذا أجاب الدكتور برنهايمر في تململ ، بينما راح يقول : « سوف يتمسّك الأمريكيّون بكوريا ، مثلما سبق لكم أن تمسكتم آنذاك بـ « كاليه » ، كي تولوا شطركم تجاه أهداف أخرى . ولكن دعنا من كوريا فهي لا تهمنا الآن . وإنما الأفضل أن تقص عليّ شيئاً عن عذراء أورليان — القديسة — جان دارك ! »

لم يجبه نيكولاس ، وإنّما انعطف بسيارته تجاه محطة البنزين الواقعة على شارع فورستهاوس ، وإذ توقّف عندها قال موجهاً حديثه إلى عامل المحطة : « عشرون لتراً » . وظلّ نيكولاس ساكناً تماماً وهو جالس أمام عجلة القيادة ، بينما

كان البنزين يتدفق إلى مستودع سيارته ، والعامل يتأكد من توفر الماء والزيت في المركبة . وإنه — نيكولاس — ليستعذب رائحة البنزين ، مثلما كان يستعذب رائحة الدهن الذي كانوا يدهنون به الأسلحة في معسكرات ميدان القتال بإقليم بيكاردي. إلاّ أنّه عندما عاد إلى مواصلة الرحيل بالسيارة ، لم تكن الريح المنبعثة من النافذة ، والتي راحت تعبث بشعره ، لتقارن بريح النصر التي هبت عليه في آزينكور » ، ولا بريح الفرار من أورليان . ومر بعض الوقت قبل أن يقول لمرافقه : « أمّا جان فإنّها كانت تأخذ كوريا بعين الجد والاهتمام » . وأضاف بصوت خفيض للغاية : « رأيتها للمرة الأخيرة في مدينة روان ، عندما سيقت لتُحرق . وعلى أثر ذلك عدوت على ظهر حصاني بعيداً عن ذلك المكان » . عندئذ قال له الدكتور برنهايمر متسائلاً : « من أجل ذلك لم تعد إلى انجلترا ؟ »

وصمت نيكولاس بعض الوقت ، ثم أجاب بعد لأي : « كنت في مهمة » .

—« هل أوفدتك عذراء أورليان في مهمة؟ هل تحدثت معها؟ »

—« لا . لا . رأيتها لأول مرة في أورليان ، وهي مكللة بغار النصر . وكان النور يسطع بشدة من وجهها ، كما في الرؤيا . وطار خيالها عابراً بي . ثمّ شاهدتها بعد ذلك أثناء إجراء المحاكمة في « روان » ولم يكن المرء بحاجة إلى التحدث معها

كي يتلقى منها طلباً . »

— « قالت لي: اترك كل شيء ، وابق منحصراً في ذاتك ، وحضّر جميع الاستعدادات . »

هنا سأله برنهايمر وقد استولى عليه العجب : « ماذا كان عليك أن تُعد ؟ » وجاء رد نيكولاس: « لعودة جان بالطبع . »

— « تقصد أن جان دارك ستعود ؟ »

— «لم يحن الوقت — تماماً — بعد . ولكنّها ستأتي . » هكذا أجابه نيكولاس .

— « وهل نفذت طلبها ؟ »

قال نيكولاس راوياً : « آنذاك امتطيت صهوة جوادي مسرعاً نحو الشرق . فقد كنت لا أستطيع المكوث في فرنسا . ولكنّي وجدت في منطقة لكسمبورج ، التي كانت آنذاك تابعة لـ « بورجوند » ، ديراً صغيراً ، اتخذت منه مأوى لي . وفيه قرأت مؤلفات « دونس سكوتوس » ، و « فيلهلم فون أوكام » ، وفيما بعد تصفحت أعمال « نيكولاس فون كورز » ولهذا فإني أعجب إذ لا أجد هنا . . » وأشار إلى الطبيعة التي تغطّيها الأشجار المصطفة على جوانب الطرق ، ومحطات البنزين ، وأعمدة الكهرباء ، وقضبان السكك الحديديّة ، ثمّ استمر مكمّلاً حديثه بعبارة لاتينية : « إن الكليات ليست سوى أسماء». وهنا تقلصت عضلات وجهه فجأة وهو يقول :

« ان الأفكار ليست سوى كلمات ، أفاهم أنت ما أعنيه ؟ فإذا ما بدأ المرء بها ، استطاع أن يفعل بالحقائق ما يشاء — وعندئذ يدور كل شيء من تلقاء ذاته . »

وقال الدكتور مؤمّناً : « عندئذ يصبح في الإمكان تغيير العالم . »

— « ولكن السادة لم يعملوا حساب الحقيقة ، التي تدعى جان . . »

هكذا أجاب نيكولاس في غضب ممزوج بالرضا ، واستطرد قائلاً : « لم يذكروا جان إطلاقاً في خططهم ولكنّي اكتشفت ذلك بينما كنت ألفظ آخر أنفاسي وأنا راقد فوق أكوام الكتب ، وقد استبد بي مرض السل في دير مهجور يقع وسط غابة على هضبة الأردن ، فقد أصبحت في حالة تسمح لي بالاعتقاد بعودة جان . »

وهز برنهايمر رأسه علامة الموافقة ، في الوقت الذي توقفت فيه السيارة أمام مدخل المسبح الرياضي ، وقال : « إذاً فقد حققت طلبها . »

— « أجل » هكذا أجاب نيكولاس .

وتفحّص الدكتور نيكولاس . إنّه — نيكولاس — ليتميّز حقّاً بطابع إنجليزي . وهو يذكر الدكتور بالصور التي التقطت للكولونيل لورنس ، وارتفع صوت الدكتور

برنهايمر : « سأذهب أنا لابتياع التذاكر ، بينما تستطيع أثناء ذلك أن تجد للسيارة موقفاً . »

وفي طريقه إلى شبّاك التذاكر ، انتابه إحساس بأن كل شيء تغيّر . فقد كان الهواء معبقاً برائحة أمر جديد . ولا ريب في أن تكون العذراء قائمة على إعداد نفسها ، في أيّ دوم ريمي أخرى (وهو اسم القرية التي ولدت فيها جان دارك) فقد التف حولها فرسانها الشبّان ، من أمثال « جلوستر » . هذا ، وسيوفهم الشبيهة بالرماح تدوّن كلمة « أورليان » بخط غير مرئي في سماء أوروبا .

قال برنهايمر : تذكرتان . . .

وسألته الفتاة الجالسة على الصندوق : « ولماذا اثنتان ؟ هل تنتظر أحداً ؟ » عندئذ حملق الدكتور برنهايمر في الفتاة ، والتفت خلفه . كان الموقف الكبير المخصّص للسيارات أمام الأستاد ، والمرصوف بالخرسانة ، خالياً تماماً ، إلاّ من جمرة الحر الأبيض في وقت الظهيرة .

قال الدكتور لنفسه : « حقّاً ، لقد قال جلوستر إن الوقت لم يحن تماماً بعد . » وبابتسامة مهذبة لا تخلو من إصرار عاد يقول للفتاة :

— « أعطيني بالرغم من ذلك تذكرتين ! »

ترجمة : مجدي يوسف

نظرة ازدراء

بقلم : كورت كوزنبرج

دق التليفون فتناول مدير الشرطة السماعة ، وقال :

« نعم ؟ »

« أنا الشرطي كرتسيج . منذ قليل نظر إليّ أحد العابرين نظرة ازدراء . »

فقال له مدير الشرطة مستدركاً : « لعلّك مخطىء . فكل من يصادف شرطيّاً يحس بوخز ضميره ويعبر على الشرطي ببصره عبوراً فيلوح ذلك كالاحتقار . »

وقال الشرطي : « لا . لم يكن الأمر كذلك . لقد حملق فيّ بازدراء من قبعتي إلى حذائي . »

« ولماذا لم تقبض عليه ؟ »

« كنت مذهولاً . ولمّا أحسست بالإهانة كان الرجل قد اختفى . »

« هل تستطيع أن تتعرف عليه ؟ »

« بلا شك . فله لحية حمراء . »

« وكيف حالك ؟ »

« بائس جداً . »

« تمالك نفسك وسأرسل من يحل محلك . »

وتناول مدير الشرطة الميكروفون وأمر بإرسال عربة إسعاف إلى المنطقة التي يعمل فيها الشرطي كرتسيج وبالقبض على جميع المواطنين ذوي اللحى الحمراء .

كان رجال شرطة النجدة كلهم منشغلين عندما بلغهم الأمر ، كان اثنان منهم يتسابقان بالسيارتين ليعرفا أي عربة أسرع من الأخرى ، وكان اثنان آخران في حانة يحتفلان بعيد ميلاد صاحبها ، وكان ثلاثة آخرون يساعدون أحد الزملاء في نقل أمتعته من مسكن إلى مسكن ، وكان الباقون منهمكين في شراء حاجاتهم . وما كادوا يسمعون الأمر ويعلمون بالموضوع حتى أسرعوا بعرباتهم إلى قلب المدينة .

وأقفلوا الشوارع الواحد بعد الآخر وفتشوها تفتيشاً دقيقاً ، فهرولوا إلى المتاجر والمطاعم والبيوت ، وكلما رأوا شخصاً ذا لحية حمراء جرّوه ، وتوقف المرور في كل مكان ، وأفزع عويل صفارات النجدة الأهلين وانتشرت إشاعات بأن الشرطة تطارد سفاحاً خطيراً .

وبعد ساعات قليلة من المطاردة كانت الغنيمة ضخمة :

فقد قبضت الشرطة على ثمانية وخمسين رجلاً ذوي لحى حمراء وأودعتهم مديرية الشرطة وراح الشرطي كرتسيج يمر على المشتبه بهم الواحد بعد الآخر وهو يعتمد على اثنين من الممرضين ، ولكنّه لم يتعرف على الفاعل .

وأرجع مدير الشرطة ذلك إلى حالة كرتسيج النفسيّة وأمر بأن يُستجوب المقبوض عليهم ، وكان رأيه : « أنّهم إذا كانوا أبرياء في هذا الأمر فلا شك أنّهم مذنبون في غيره . والاستجوابات تؤدي دائماً إلى نتائج . »

حقّاً لقد أدت الاستجوابات إلى نتائج في تلك البلدة . ولا ينبغي أن يظن أحد أن المستجوَبين لقوا سوء المعاملة أو تعرضوا للقسر ، لا لم تلجأ الشرطة إلى الغلظة ، بل لجأت إلى وسائل أكثر رقّة . كان البوليس السري قد قام منذ مدّة طويلة بسؤال الأقارب والأعداء دون أن يلحظوا شيئاً ، وأعد سجلات عن كل مواطن أثبت فيها الشيء الذي يكرهه بصفة خاصّة : صخب أجهزة الثّقب ، النور الوهاج ، رائحة الكاربور ، الأغاني الشعبيّة الإسكندينافيّة ، منظر الفيران المسلوخة ، النكت البذيئة ، نباح الكلاب ، لمس صمغ صيد الذباب . . الخ . واستعملت الشرطة هذه الوسائل استعمالاً تامّاً فأدت المفعول المطلوب : أكرهت المتهمين على الإدلاء باعترافات صادقة وكاذبة حيثما اتفق . وتهللت الشرطة

واستبشرت . هذا ما حدث للثمانية وخمسين رجلاً .

أما الرجل الذي كانت الشرطة تريده ، فكان في بيته منذ مدة طويلة . فلمّا دق رجال الشرطة الجرس ، لم يسمع لأن الماء كان ينساب في حوض الاستحمام محدثاً ضجة . ولمّا امتلأ حوض الاستحمام سمع ساعي البرق يدق الجرس وتسلّم منه برقية ، كانت تحمل خبراً سارّاً هو عرض لشغل وظيفة في الخارج طبعاً بشرط أن يرحل على الفور .

وقال الرجل : « حسناً ! لا بد لي الآن من عمل شيئين : أولاً : الإطاحة باللحية التي سئمتها . وثانياً : الحصول على جواز سفر لأني لا أمتلك جوازاً للسفر . »

واستحم وتمتع بالاستحمام ، ثم ارتدى ملابسه واختار رباط عنق جميلاً تكريماً لليوم السعيد ، واستعلم تليفونيّاً عن موعد الطائرة التي سيستقلها ، وغادر البيت واخترق بعض الشوارع التي كان الهدوء قد عاد إليها ودخل صالون حلاقة . فلمّا فرغ من الحلاقة ذهب إلى مديريّة الأمن لأنّه كان يعلمَ أنّه لا يمكن إلاّ هناك الحصول على جواز سفر على وجه السرعة .

ولا بد أن نعود هنا إلى القول بأن الرجل كان بالفعل قد نظر بازدراء إلى الشرطي ، لأنّه ، أي الشرطي كرتسيج ، كان يشبه ابن عمّه إيجون شبهاً كبيراً ، وكان الرجل يحتقر

ابن عمّه هذا لأنّه صعلوك لا يساوي شيئاً ولأنّه مدين له بديون لا يردها ، فلمّا أبصر كرتسيج تورط في نظرة الازدراء.

كان كرتسيج إذن قد أصاب في ملاحظته ، ولم يكن لأحد أن يعيبها أو ينتقصها في شيء .

وشاءت المصادفة أن يقابل الرجل الشرطي مرّة أخرى وهو يدخل مديريّة الشرطة ، ولكنّه في هذه المرّة أشاح عنه بوجهه بسرعة حتى لا يغضبه ، إلاّ أن الشرطي كان يبدو في حال سيئة ، وكان هناك ممرضان يرافقانه إلى عربة الإسعاف .

ولم تتم عملية استخراج جواز السفر بالسهولة التي تصورها الرجل ، ولم تسعفه الأوراق الكثيرة التي حملها معه والبرقية التي قدمها للموظف : فقد ارتاع الموظف للسرعة غير اللائقة .

وقال الموظف : « جواز السفر وثيقة هامة ويحتاج إصداره إلى وقت . »

وأومأ الرجل برأسه وقال : « صحيح أن هذه هي القاعدة . ولكن كل قاعدة لها استثناءات . »

فرد الموظف قائلا : « لا أستطيع البت في هذا الموضوع ، وليس هناك من يستطيع هذا إلا مدير الشرطة وحده . »

« إذن فلنلجأ إليه . »

وجمع الموظف أوراقه ونهض ثم قال : « تعال معي وسنختصر الطريق ونذهب إليه من خلال المكاتب . »

واخترقا ثلاثة أو أربعة مكاتب كان يجلس فيها رجال ذوو لحى حمراء . فقال الرجل في نفسه : « شيء عجيب ! لم أكن أعرف أن هناك هذا العدد الكبير من ذوي اللحى الحمراء ، ولكني الآن لست منهم . »

وكان مدير الأمن مثله مثل الكثير من الحكام المستبدين يحب أن يظهر بمظهر سعة الأفق ، فلما فرغ الموظف من إبلاغه الأمر ، تركه ينصرف ورجا الزائر أن يجلس ، ولم يكن من السهل على الزائر أن يبتسم لأن مدير الشرطة كان يشبه ابن عمه أرثور الذي كان يكرهه هو الآخر . ولكن عضلات وجهه أدت واجبها ورسمت ابتسامة — فقد كان الأمر أمر الحصول على جواز السفر .

وقال مدير الشرطة : « صغار الموظفين خوافون يتحاشون البت في الأمور . طبعاً ستأخذ جواز السفر حالاً ، الآن . فإن تعيينك في استنبول شرف لمدينتنا ، مبروك . » وختم الجواز بالخاتم الرسمي ووقع عليه بإمضائه .

وقدم الوثيقة إلى ضيفه ببساطة كأنه يقدم إليه كراسة عادية ثم قال : « إنك تربط حول عنقك كرفتة جميلة عليها خريطة مدينة — أليس كذلك ؟ »

فرد الرجل : « بلى ، إنها خريطة مدينة استنبول . »

ونهض مدير الشرطة ومد يده لمصافحة الرجل وهو

يقول : « إنّها فكرة خلابة ، مع السلامة . » ورافق الضيف إلى الباب ولوّحَ له مودّعاً ثم ذهب إلى المكاتب التي كان يجري فيها استجواب المقبوض عليهم .

وكان المأسوف عليهم قد اعترفوا ببعض آثام ارتكبوها ، حتى ينتهوا من العذاب الذي تعرضوا له ، ولكنّهم لم يعترفوا بما اتهموا به ، وأمر مدير الشرطة بالاستمرار وذهب ليتناول طعام الغداء .

فلمّا عاد وجد إشارة تنتظره ، فقد أبلغ بعض الحلاقين الشرطة أنّه قبل ظهر اليوم جرّد زبوناً من لحيته الحمراء بناء على رغبته ، وقال إنّه لا يستطيع أن يصف الرجل ولكنّه يذكر أنّه كان يرتدي شيئاً لافتاً للنظر : كرفتة عليها خريطة مدينة .

وصاح مدير الشرطة : « ألستُ حماراً ؟ ! » ونزل الدرج مهرولاً ، يقفز اثنين اثنين . وكانت سيارته تنتظر في الفناء ، فارتمى على المقعد الخلفي فيها وصاح بالسائق : « إلى المطار ! »

وفعل السائق ما استطاع ، داس كلبين وحمامتين وقطة وأحدث خدشاً في الترام وأتلف عربة يد تحمل ورقاً قديماً وأفزع مئات المشاة . ولما وصل إلى المطار كانت الطائرة المسافرة إلى استنبول قد ارتفعت منذ ثانية واحدة في الهواء .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

العملية الجراحية

بقلم : روبرت هيرتر

نفذت الإبرة في عضلة الفخذ المرتخية منزلقة بدقّة موضوعية ، دون أن تتميّز ببرودة أو سخونة . وبما لا يزيد عن ضغطة خفيفة ، لا شكّ أنها مملوءة بالخبرة والحذر ، جعلت الممرضة تلك الأداة ذات الطابع القديم المعهود في وضع يسمح لطرف الإبرة أن يرتكز على سطح البشرة ، ثم راحت تدفعها في مرونة . وأحدثت الوخزة ألماً خفيفاً سرعان ما تخلل الجسم كبارقة زرقاء رقيقة . وسرعان ما انطفأ الألم في الدماغ في جزء من الثانية ، بمجرّد إدراكه . والآن عندما راحت الممرضة تضغط على مقبض الحقنة في بطء ، تدافع إلى العضلة من خلال مجرى الإبرة الشعيريّة سائل مخدر لطيف في شفافية الماء ، أخذ يختلط رويداً رويداً بماء الحياة الأحمر في تدفّقه النابض نحو القلب وسرعة إدباره عنه من جديد . وعبقت في الغرفة

رائحة راتنجية خفيفة ، كان مبعثها مخدّر « الناركوفين » .

وفي هذه اللحظة بدأت العملية الجراحيّة بالنسبة له . كان المريض قد ذهب إلى المستشفى في الليلة السابقة . وكان يعلم أنّه لن يخدر تخديراً كاملاً وأن العملية الجراحيّة ستُجرى له بتخدير موضعي ، بل إنّه سيخبرها — على ما قالوا له — « بجسد نابض بالحياة » . إذن فقد كان يعلم ، أو يعتقد بأنّه سيستطيع أن يتتبّع مجرى العملية بوعي تام . ولم يكن ذلك يؤرقه أو يسلبه هدوءه في شيء . فقدكان كل من نبضه ودرجة حرارته عاديّاً في الليلة السابقة ، بل وفي صباح يوم العمليّة أيضاً . كانت هذه المرّة الأولى التي يرقد فيها بأحد المستشفيات ، بينما لم تضم خبراته السابقة ما ينتظره من تجربة . كان يعلم أن الأمر لا يقتصر على مغامرة سيخوضها بدنه ، حيث أُعدّ لها الآن بكل هذه العناية وذاك الاهتمام ، بل إن ذلك الإعداد لم يبدأ الآن فقط ، وإنّما كانت بدايته في المساء عندما ناولوه قرصاً ليجعل نومه عميقاً هادئاً لا تؤرقه أحلام مفعمة بمخاوف الانتظار .

ولم تراوده الأحلام . إلاّ أن هذه الليلة التي قضاها لأول مرة في المستشفى لم تكن عاديّة فتدخل إطار حياته المألوفة . وبينما رقد هنا وراح يلاحظ الأشياء النظيفة البيضاء في الغرفة راوده إحساس بأن وعيه ، وعيه بذاته وبالمحيط الذي حوله

مباشرة ، قد تبدل وصار على حال مغاير ، وبدا له كما لو كانت هذه الغرفة ، بما لها من رائحة مستعصية على التعريف رغم إدراك الأعصاب والخيال لها ، رائحة التغيرات البشريّة الكثيرة المجهولة وكأنّها تغص بمخدر سرّي للقدر وماثلت هذه الغرفة نفسها ناقوساً مخدّراً انكفأ عليه صمت ، فأصبح لا يسمع طنينه الصامت سوى سمعه الباطني داخل ذاته . ولم يحس بانعزال أو خروج عن الانتماء الروحي إلى أولئك الذين في الخارج ، ذلك الانتماء الذي لا نهاية لتفرعاته أو مداه ، ولا سبيل إلى سبر غوره . أمّا هنا ، في هذه الغرفة ، فقد شارك وأصبح هو نفسه جزءاً من عالم آخر أكثر غموضاً وإبهاماً ، عالم أولئك المجهولين الذين سبقوه جميعاً على مدى سنوات طوال في سُبات منصة العمليات في نفس هذه الغرفة . ولم تؤرقه هذه الفكرة أيضاً ، وإنّما ملكت نفسه بمفعول هادىء متّصل كما تملّك زمام بدنه ذلك السائل العديم اللون المر الرائحة .

بعد أن حقنوه بالإبرة تركوه وحده من جديد . وهنا راح مخدّر « الناركوفين » يزحف داخل جسده فيعلو ويهبط مع إيقاع النبض ويندفع متّسقاً مع الدم حتى أصغر وأدق الشعيرات ، ثم حمله برفق إلى نصف سُباته ، أو إلى حالة من غيبوبة الوعي ، كانت بمثابة زورق خفيف ظلّ يبتعد به في بطء من الشاطىء الثابت لليقين الذاتي الأكيد الوضوح . وكانوا قد أخبروه أن

هذه الحقنة لن تحدث له تخديراً تامّاً ، وأن وعيه لن ينصرف تماماً طيلة أثرها . إلاّ أن ذلك قد ضاع الآن من ذاكرته . واستسلم جسده لهذا الوضع المخدّر اللطيف ، كما أحس به وعيه في استمتاع سلبي . وشعر أنّه كلّما استمر على رقدته هذه بأطرافه الممدودة ومفاصله المتراخية وعضلاته المرتخية ، تحكّمت تيارات عميقة في ذلك الزورق العجيب الغامض أثناء انزلاقه بين شاطىء النوم والحلم .

إلى هنا كانت الأصوات لا تزال تترامى إلى سمعه من وراء الباب في الخارج ،حيث كان يُسمع وقع أقدام الممرّضات ذو الطابع المسرع الهادىء . وعندما فُتح الباب ودُفعت إلى الداخل العربة التي كانت ستحمله إلى قاعة العمليات استطاع التعرف على الممرضة والممرّض ، وإن بدا له كل ذلك كحركة محببة في حلم على حافة أرض لم توطأ . ورفعوه إلى العربة ، وعندما دفعوها به في الممر لاحظ وإن لم يكن بوضوح تام حدود النافذة الكبيرة التي تسد جانباً من الدهليز الطويل . ولم يصبح في مقدوره أن يميز ما إذا كانت العربة التي تحمله قد توقفت أو مضت في السير ، وما إذا كان هو سابحاً في مياه مظلمة أو محلّقاً بعيداً عن الأرض بين السقف والجدران ذات الأبواب الكثيرة . وتعرف على الزهور المطلة من حافة النافذة ، ولكنه لم يعد يذكر أسماءها . وكذا لم تمكّنه حاسة شمّه من إدراك

رائحتها . فكل هذه كانت مجرّد « أشياء » لا أهمية لها ، موضوعة على هامش رحلته وأفكاره ، وبين آن وآخر كان يبدو له بصورة غير واضحة ، كصوت نفير بعيد ، أنّه ستُجرى له عملية جراحية . وكان لا يزال يدرك لون الجدران دون شعوره بصلابتها وشكلها . أما السقف الأبيض والمصابيح الكروية البيضاء المتدلية منه فلم يلحظها إلاّ فيما بعد ، عندما سار في نفس الطريق مرّة أخرى بعد أن استطاع أن ينهض على قدميه .

لم يحضروه مباشرة إلى حجرة العمليّات ، وإنّما إلى غرفة مجاورة لها . وهناك أزيحت عربته تجاه الحائط ، وتركوه وحده من جديد . كانت هذه الغرفة ساكنة تماماً . وقد تذكّر فيما بعد أن شعوراً ما راوده بأنّه سيظل فيها على وضعه هذا دوماً . لم يكن شعوراً مزعجاً أو مجرّد باعث على الضيق . ولعله استمر لبضع ثوان ، إلا أنّه كان يعبر عن حالة خروج كامل عن حيّز الزمن والعلاقات البشرية . ولم يخالط هذا الإحساس قلق أو برم ، يبعث في نفسه ذكرى العالم الخارجي بتطلع يقطر مرارة . . من ذلك المجهول غير الممارس الذي ينتظره . . من العملية الجراحيّة التي سيقدم عليها . وتحت الغطاء كانت ذراعاه راقدتين في وضع موازٍ لبدنه ، وقد لاصقت يداه فخذيه. أمّا عيناه ، المغلقتان تقريباً، فقد لاحظتا دولاباً صغيراً وإن

عجزتاعن تبين كنهه . . ورغم ما كان عليه وعيه من تشتت وتحلل وتأرجح بين الظلال ، فهو لم يفارق بدنه ، بدنه الذي لا يزال وسطاً سحرياً يتدفّق منه الشعور والطاقة وجلال شخصيته غير المنقسمة .

ثمّ أتوا بالمريض إلى قاعة العمليّات . ورغم أنّه قد أدرك هذا التغيّر ، إلاّ أنّه صار الآن ، بعد أن حقّق ذلك السائل المختلط بدمه قمة أثره في تخدير الإحساس ، ولا شكّ ، إنّه أصبح غير قادر على التعرف على ما حوله من محتويات الغرفة الكبيرة البيضاء التي تبدو لغير المتخصص كهالة غريبة تبعث على الفزع ، وسمع أصواتاً تهمهم وكأنّها تتآمر ، أصوات رجال وأصوات نساء ، تسأل وتهدىء . وحاول أن يركز نفسه على ذاته وعلى ما يدور حوله ، وعلى خرافة قاعة العمليّات التي كان يعرفها هو الآخر : على أزيز المياه الساخنة التي يغسل الأطباء أيديهم فيها طيلة دقائق ، وخاصة على قرقعة وصرير أدوات الجراحة اللامعة . ولكنه لم يسمع شيئاً . هل تم كل شيء قبل أن يحضروه إلى قاعة العمليات ؟ هل كان وعيه منهكاً إلى هذا الحد ، إذ تغيّر وابتعد عن حواسه وأعصابه لدرجة أنّه أصبح عاجزاً عن استقبال مثيراتها ؟ أم أن حواسه وأعصابه قد صارت مشلولة صمّاء بكماء لا تستجيب لأي مثيرات ؟

لم يدر ، وفي تلك اللحظة لم يكن ذلك يهمّه أيضاً . الشيء

الوحيد الذي سمعه هو أنّه لا بدّ أن يزيحوه تجاه النافذة الكبيرة .
ولكنّه لم ير النافذة . لم يرَ ألواحها الزجاجيّة الملساء والمقببة
الكاسرة لأشعة الشمس ، ولم يشهد حوافها وأكتافها المعدنيّة
التي كانت تسند اللوح الزجاجي الكبير . وإنّما رأى ضوءاً
ساطعاً قويّاً مسلطاً عليه ، والممرّض في هذا الضوء وهو يدهن
الموضع الذي ستُجرى فيه العمليّة بمرهم في لون بنّي مشرب
بالاحمرار . كان هذا اللون شديد النضارة حتّى إن وعي المريض
لم يسجّله على أنّه مجرّد لون « بنّي تغشاه الحمرة » (كما
سبق أن استقبل لون الجدار أثناء المرور بالدهليز على أنّه
« أزرق » دون أن يربطه بأي أفكار) وإنّما اندلعت من
خلاله ذكرى لعبة الهنود الحمر ، واستحضر مشهداً لطفولته
المبكرة من تحت أنقاض النسيان ، حيث دهن المريض ذات
مرّة وجهه بقطعة من الصلصال المبلل . التهب المرهم وسرعان
ما نشر في البشرة سخونة نقيّة بعثت في الجسم بدورها إحساساً
بالنظافة وبالأمن أيضاً . كانت هذه هي اللحظة الأخيرة التي
أحاط فيها وعي المريض بجسده في حالته الملموسة غير
المتبدلة ، أو في وحدة ذاته التي لا تعرف الانقسام . وعندما
ربطوا ساقيه وأوثقوا ساعديه على الجانبين ، كان وعيه قد
ولى الأدبار . .

والآن بدأت العمليّة الحقيقيّة ، أو ما يدعوه الأطبّاء

بالفتح الجراحي للبدن ، وهو الذي يزيد ويختلف كثيراً عن مجرّد كونه طريقة فنيّة تنهض على معارف ومعلومات يقينيّة دقيقة في علم التشريح ، إذ هو في نهاية الأمر ليس مجرد فتح طبي لجسم المريض – إلاّ أن ذلك لم يبلغ وعي صاحبنا . فهو لم يحسّ بشيء من الوخز الذي دار حول « موضع العمليّة » ، ولم يلحظ شيئاً من ذلك الحياد العجيب الذي يجعل جزءاً من جسم المريض كالجماد لا يعرف الألم بعد أن ينزلق تحت سيطرة التخدير الموضعي . لا بد أنّه كان قد فقد الوعي لبعض الوقت إذ إنّه عندما شعر بالعملية أثناء إجرائها كان الفتح قد تمّ . وبالطبع لم يشعر بأي ألم ولكنه اكتشف شيئاً جديداً يقع فيما وراء الذعر والدهشة ، والاستعجاب والخوف ، والانقباض والإضراب : فهو لم يعلم أن الأطبّاء كانوا في تلك اللحظة يعملون في جسده هو شخصيّاً . ذلك أنّه ولو أن بدنه لم يكن كلّه في تلك الحالة من النوم المتقوقع الذي اختصّ به موضع العمليّة ، إلاّ أنّ وعيه كان من البعد بمكان بحيث لم يعد يتعرّف على جسده المنتمي إليه ، وإليه وحده . كذا ارتفع إحساسه بقدر ضئيل في عالم المحسوسات الذي حوله ، وطفا بلا قدرة على التعلّق بالأشياء أو تعلّق الأشياء به . وظلّ جسده راقداً على منضدة العمليّات ، بينما انحنى فوقه الأطبّاء ، وراح وعي المريض يطير فوقه بلا صوت كطير كبير مضطرب جعل

يضرب جناحيه في عجز ويغطّيه بظله كسفينة جنحت إلى الشاطىء . .

لم يشعر المريض بأي قلق ، فقد كان بعيداً عنه بُعد الألم عن جسده . وإذ فتح عينيه مرّة لاحظ ما يشبه المصباح الورقي (اللامبيون) يعلو رأسه وكان له حاجب ضوء مكسوّ بتيل خفيف وفي أعلاه فتحة مكنته من أن يرى الأطبّاء من خلالها دون أن يتعرّف عليهم بالطبع . وتمكّن أحياناً من سماع بعض ما يقول « الأستاذ » كعبارة مؤمّنة « أترى » أو أخرى سريعة منهية « حسناً ! » . وسمع كذلك أنّها لم تكن عبارة « حسناً » الأخيرة التي تم بها العمليّة ، والتي كان ينتظرها في لهفة لا شعوريّة . ثمّ أحسّ مرّة بإشارة غريبة لا تفسير لها ، صادرة عن المنطقة المحايدة : « موضع العمليّة » — وكانت تنمّ عن جزء من العمليّة : إبرة دقيقة الطرف للغاية سُحبت بخفّة عجيبة على جلدة طبلة مشدودة . وهكذا كانت تماماً . (لم يستطع المريض فيما بعد أن يجد تعريفاً آخر لهذا الأثر الوحيد الذي خلفته العمليّة في وعيه ، فأصبح كألغاز الكتابة الهيروغليفية) . كان شعور لا علاقة له ببدنه ، بل ولا يذكّره به . وعلى النحو الذي واتاه به هذا الشعور ، فقد استنفد كل دلالاته الفعليّة . كان فعليّاً غير قابل لطعن أو شك ، خارجاً عن نطاق كل امكانيّات التجربة ، شأنه في ذلك شأن التأثّر النظري بالنجوم

الذي بعثه في نفسه العاكس الكبير من فوقه ، فبدا له بمصابيحه وطوقه المعدني البراق ككوكب زحل وحلقة أقمار .

ولمّا كانت العمليّة قد استغرقت زمناً أطول من المعتاد ، فقد راحت الممرضة تضع على وجه المريض بين وقت وآخر كتلة قطنية مشبعة بعض الشيء بالأثير . ولم يستطع أن يرى الممرّضة التي كانت واقفة خلف رأسه من ناحية الجنب . وإنّما سمع صوتها المهدىء وجعل يأخذ نفَساً عميقاً باستمرار . وفي نفس اللحظة تقريباً أحسّ بأثر المخدّر ، وكيف أنّه كان يمضي مع موجة لطيفة ، فإذا ما استنشق ذاك العطر الطيّار بقوّة أكثر هبط وسط الموجة وتأرجح منزلقاً إلى أعماق رائعة الألوان . ملأه هذا الصعود والهبوط بهدوء كبير جعله ينسى دائماً ومن جديد أن وعيه في واد وجسده في واد آخر ، بينما هو الآن لا يعلم إذا كان سيقدر لوعيه أن يعود يوماً ليلتقي ببدنه . واستمد أمناً أعمق ، وإن يكن الآن إطلاقاً بلا علاقة ، من الدفء والطراوة المنبعثة من ضغط ممرضتين عليه بخفة بينما كانتا تحاولان سنده كي يظل على وضعه مستلقياً في هدوء . وكانت هذه التجربة بمثابة المنفذ أو باب الفردوس الذي استقبل منه جسده إيماناً وأملاً أرضيّاً ، جاء متدفّقاً في هدوء ودعة من تلك الأرض المفقودة ، حيث الجسد والإحساس فيها كلّ واحد .

أخيراً انتهت العمليّة . وقال « الأستاذ » كلمته الأخيرة : « حسناً . . لقد تم كل شيء » . أمّا المريض ، وهو الذي كان يعوزه أيُّ تصوُّر عن المدة التي استغرقتها العملية ، فضلاً عن كونه لم يستطع أن يربط بين المراحل الجراحيّة وجسده ، لا على مستوى الإحساس ولا حتى عن طريق تعيين المكان المعرض للجراحة ، فقد كان لديه — رغم كل ذلك — قرينة تشير إلى أن المرحلة الجراحيّة في طريقها إلى الانتهاء . ولم يشعر مرّة أخرى بالألم ولا بإحساس مرتبط بجسده يدله على أن الطبيب يخيط جرحه المتخلف عن العمليّة ، وأحس بالوخز — هنا أو هناك ؟ — على نحو ما كما لو كان الطبيب يضع حملاً ثقيلاً فوقه ، وبينما كان يشد الخيط بدا له وكأنّه يخيط حذاءً خيالياً ضخماً . وعندما أزيح حاجب المصباح عن رأسه لم ير شيئاً : لا طبيب ولا ممرّضة ولا أدوات أو جدران أو سقف . ولم تعد إليه ذاكرته إلاّ في الخارج بالدهليز ، إذ دار بخلده أنّه قد سبق له أن مرَّ به . فالنافذة ، والزهور ، والأبواب : راحت جميعها تعكس صورها على شبكة عينيه . ولم يدرِ شيئاً عن كيفية دخوله من الدهليز إلى غرفته وحمله من العربة إلى سريره . فالبادي أنّه سرعان ما غلبه النوم .

عندما أدرك بعدئذ في الصباح أنّه راقد في حجرته ، وعى ما طرأ عليه من تغيّر جديد بما يشبه الجزع . وحالما راح

يتحسس بسرعة زائدة موضع العمليّة ، شعر بالرباط وبألم قصير متأرجح ، وكان لا بد أن يغلق عينيه وكأنّه حملق بهما في مواجهة شعلة شديدة التوهج ، ثم راح هذا الإحساس . وهنا وعى ما حدث : فقد عاد إلى جسده ثانية . فحسّه وبدنه لم يعودا منفصلين ضالين كالظلال هنا وهناك . فقد عادا ليجتمعا في وحدة الذات غير المنقسمة . ويا لها من لحظة سعيدة ففيها كانت العمليّة الجراحيّة قد انتهت بالنسبة له هو أيضاً .

ترجمة : مجدي يوسف

تعريف بالمؤلفين

هاينتس ريسّه

وُلد في دسلدورف سنة ١٨٩٨ ، يشتغل في الاقتصاد منذ عام ١٩٢٢ . درس الاقتصاد القومي وحاز على شهادة الدكتوراه عند العالم الاجتماعي الشهير ألفرد ويبر . تتخلّل رواياته وقصصه واقعيّة دقيقة وظلال بين الجديّة والسخرية ، وفيها يحلّل مشكلة الإنسان الحديث الذي بكونه مقتلعاً من المجتمع يجد نفسه في نزاع مع المجتمع ومع المواقف الفلسفيّة المتعدّدة . ظهرت روايته الأخيرة « واحد كثيراً » عام ١٩٥٧ ، ومجموعته القصصيّة الأخيرة « ذهب كلّ شيء ضياعاً » سنة ١٩٦٢ .

كلاوس نوننمن

وُلد في بفورتسهايم عام ١٩٢٢ ، ويعيش حالياً في فرانكفورت — ماين . وهو كاتب قصّة يمتاز بروح النكتة وبميل نقدي لعصره . ظهرت روايته « الرسائل السبع للدكتور فامباخ » ، عام ١٩٥٩ ، وفي عام ١٩٦١ ظهرت مجموعته القصصيّة « رسالة تجاريّة موثوق بها » .

أرنست شنابل

من مواليد سنة ١٩١٣ . ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى هجر المدرسة ليركب البحار ويصبح ملاّحاً . وهكذا ظل اثني عشر عاماً يطوف بموانىء العالم على ظهر البواخر والمراكب الشراعيّة (!) وفي عام ١٩٤٦ صار شنابل كبيراً للمخرجين الإذاعيين ثم مديراً لإذاعة شمال غرب ألمانيا في سنة ١٩٥١ . وهو يدير حالياً — بالاشتراك مع رولف ليبرمان — البرنامج الثالث (الثقافي) لإذاعة شمال ألمانيا .

صدرت أولى روايات شنابل عام ١٩٣٩ تحت عنوان : « رحلة إلى سافانا » ثمّ تبعها « ريح ليلية » (سنة ١٩٤١) فـ « سفن ونجوم » (١٩٤٣) و « الأغنية السادسة » (١٩٥٦) و « أنا والملوك » (١٩٥٨) . ومن أهم مؤلفاته الإذاعيّة التمثيليّة : « يوم كباكر » (١٩٥٠) و « حديث مع كوكب سماوي » (١٩٥١) و « للأرض أسماء كثيرة » (١٩٥٥) . وقد أخذت قصة « مائة ساعة قبل بانكوك » من مجموعته القصصيّة التي ظهرت بالألمانيّة تحت عنوان : « إنّهم لا يرون المرمر » (١٩٤٩) . ورغم أن أسلوب شنابل يميل إلى السرد العلمي إلاّ أنّه غير جافّ . فهو حين يصف حدثاً نفسيّاً يميل إلى الإتيان بالتشابيه التي — برغم ذلك — تضيء جانباً مظلماً من حياتنا اللاشعوريّة .

هانز بندر

وُلد في ميلهاوزن (كرايشكو) وعُرف بعد الحرب كشاعر غنائي وكقصّاص، وبصفته ناشراً للمجلة الأدبيّة أكسنتي ، التي تأسست في السنوات الخمسينيّة الأولى ، وعضواً في جماعة الـ ٤٧ ، فجّر بندر مواهب جديدة ، مع كونه محافظاً . ظهرت مجموعته القصصيّة الأولى سنة ١٩٥٣ بعنوان « الخبز المقدس » والثانية سنة ١٩٦٢ بعنوان « العبور » .

جرهارد كرامر

وُلد عام ١٩٠٦ في « بريسلاو » ونشأ في « دريدن » . وقد توفّر على دراسة الفلسفة والأدب والقانون وتاريخ الفن حيث حصل عام ١٩٢٨ على الدكتوراه ولم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره . وكان موضوع رسالته : نيتشه وروسو . وفي الصحف الألمانيّة صدرت له قصص عديدة جُمع بعضها في كتاب يحمل عنوان « تسع حكايات » . وقد التحق الدكتور كرامر بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجيّة الألمانيّة عام ١٩٤٠ ، ثم أصبح عضواً في المجلس الإقليمي لمنطقة « انجولشتات » من ١٩٤٦ — ١٩٥٢ . وفي عام ١٩٥٢ عاد إلى وزارة الخارجيّة الألمانيّة رئيساً لشعبة الأدب والمكتبات . ومنذ ١٩٥٥ شغل الدكتور كرامر منصب المستشار الثقافي لسفارة جمهورية ألمانيا الاتحاديّة بالقاهرة حتى ١٩٦٣ . ويشغل الدكتور كرامر حالياً منصب رئيس شعبة الفنون بوزارة الخارجيّة الألمانيّة (بون) .

هاينريش شيرمبك

وُلد عام ١٩١٥ في مدينة « ركلنجهاوزن » . وقد مرّ وهو في طريقه إلى أن يصبح كاتباً حرّاً بتجارة الكتب والدعاية والصحافة . كما أنّه بدأ بكتابة الحكايات والقصص القصيرة ، التي جمعها ونشرها في مجلدات تحمل العناوين التالية : « زملاء المسابقة » و « المتاهة المنعكسة » و « الليلة السابقة للمبارزة » . وقد حازَ على جائزة الأدب لأكاديميّة العلوم بماينز (سنة ١٩٥٠) على قصته : « تغريرات خطيرة » . كما صار عضواً بالجمعيّة الدوليّة للشعراء وكتّاب القصة والمقالة ، وكذا بالأكاديميّة الألمانيّة للغة والأدب . أمّا فنّه الروائي فيقع ما بين « أ . ت . آ . هوفمان » و « إدجار آلن بو » . وقد وجد اهتمامه الشديد بالعلوم الحديثة ، وبخاصة علم الفيزياء ، صداه في روايته : « أتضايقك عينك اليمنى ؟ » التي أصدر بعدها رواية : « الملازم الشاب نيكولاي » .

هربرت هيكمن

وُلد سنة ١٩٣٠ ، وهو من الكتّاب الشباب الذين أتوا بنبرة جديدة . قصصه قصيرة ومليئة بالمعنى ، وهي تعالج الحوادث اليوميّة التي تنقلب إلى حوادث هامّة وعميقة ، وبهذا يكمن التأثير المفاجيء على القارىء . درس الفلسفة والأدب ، يشغل الآن مركز مساعد في جامعة مونستر ، ظهرت له مجموعتان قصصيّتان : « الرسم » (١٩٥٨) و « القصص السوداء » .

فولفكانك بورشرت

وُلد في هامبورغ عام ١٩٢١ وتوفّي وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وبعرض تمثيليته الدراماتيّة « خارجاً أمام الباب » في السنة التي مات فيها صار صوتاً جديداً لجيل الشباب الذي التحق بالحرب إجباريّـاً ويجد نفسه الآن خائباً في عالم صحراوي . ويبرز الصراخ والشكوى في القصص القصيرة التي نشرها سنة ١٩٤٧ .

كورت كوزنبرج

وُلد سنة ١٩٠٤ في كوتيبرغ (السويد) ، تلقى دروسه في تاريخ الفن في جامعات ميونخ ، برلين ، وفرايبورغ ، قام برحلات دراسيّة في أوروبا ، اهتّم بالنقد الفني وبالصحافة في برلين ، التحق بالجنديّة بين ١٩٤٣ — ١٩٤٥ ، وقع في الأسر ، وهو يعيش منذ ١٩٤٦ كمحاضر وكمؤلّف في هامبورغ .

من تأليفه مجموعته القصصيّة : « بين تحت وفوق وقصص أخرى » .

ألفريد آندرش

اشتهر « الفريد آندرش » على الصعيد العالمي ، بفضل روايتين طويلتين من تأليفه . وقد تُرجمت أولاهما : « زنجبار أو القاع الأخير » ، إلى عدة لغات ، كما ظهرت على شاشة التلفزيون في صورة تمثيليّة . أمّا ثانيتهما : « الحمراء » فقد صورت للسينما في شتاء البندقيّة ، وأخرجها « هلموت كويتنر » . وكلتا الروايتين تناقش في سجال حاد قضايا هذا العصر ، وتأسر القارىء بالأحداث شبه البوليسيّة . وتتميّز أعمال آندرش الروائيّة بأنّها لا تقدم للقارىء آراء تقيّده سلفاً ، وإنّما تحفزه على اتخاذ قرار ذاتي بشأن القضايا المعروضة أمامه . ويحقق كاتبنا — الذي ولد عام ١٩١٤ في ميونخ — نفس الأثر بقصصه القصيرة ، التي تجمع إلى جوار السرد البسيط لمجريات الحياة أحياناً ، قصص الأشباح ، التي يُعد أحسن تعريف لها ، هو أنّها سخرية لاذعة من هذا العصر . وجدير بالذكر أن الفريد آندرش قد حاز — تقديراً لمؤلّفاته — على عدّة جوائز أدبيّة معترف بها عالميّاً ، في غضون الأعوام الأخيرة .

روبرت هيرتر

وُلد في مدينة « مانهايم » عام ١٩٠٧ . ودرس التاريخ وعلم الاجتماع ثمّ أصبح محرّراً — أوّل الأمر بجريدة الـ « فوسيشه تسايتونج » ببرلين . انتقل بعد ذلك إلى تحرير صحيفة الـ « فرانكفورتر تسايتونج » ، وفي أعقاب الحرب اشترك في إصدار مجلة « الوضع الراهن — Die Gegenwart » وقد استمر حتّى عام ١٩٦٤ رئيساً لتحرير جريدة الـ « شتوتجارتر تسايتونج » . نشرت له في هذه الصحف مجموعة كبيرة من الدراسات الأدبيّة ، كان من بينها مقالات عن : « والت هويتمان » ، و « هنري جيمس » ، و « تشارلس سيلسفيلد » ، و « أورتيجا اي جاست » ، و « آرتور كوستلر » . وهو كناقد صبّ اهتمامه على الأدب الأمريكي المعاصر ، وعلى الكاتب « وليامز فولكنر » خاصة . وقد صدر لـ « روبرت هيرتر » ، في مطلع حياته الأدبيّة ، قصة « طلقة في البحيرة » ، أتبعها (سنة ١٩٤٩) بكتاب يضم يوميّات رحلة تحت عنوان : « جولة حول بحيرة بودينزيه » ، ثم بآخر عام ١٩٥٧ يعرض انطباعات زيارة لإسبانيا ، بعنوان : « مسرّات إسبانيّة » . وهو يُعد في الوقت الحاضر كتاباً يعالج فيه مجموعة من البقاع الأوروبيّة ، عنوانه : « يوميّات أوروبا » . وقد حظي « هيرتر » في شهر مايو (أيّار) ١٩٦٥ بـ « جائزة الصحفيين الألمان لعام ١٩٦٥ » ، من أجل أعماله الأدبيّة .



قصص ألمانية حديثة



Dieses Werk wurde in
gemeinschaftlicher Zusammenarbeit der Verlage

Dar SADER, Beyrouth, *Libanon*
und
HORST ERDMANN Verlag, Herrenalb, *Deutschland*
und Basel, *Schweiz*
veröffentlicht

Grundlage dieser Veröffentlichung ist der Band
« Deutsche Erzählungen aus zwei Jahrzehnten »,
herausgegeben von Wolfgang Langenbucher

Diese Auswahl besorgte Sigrid Kahle
unter Mitwirkung von Fuad Rifka und Magdi Youssef

Aus dem Deutschen ins Arabische übersetzt
von Mustafa Maher, Fuad Rifka, Magdi Youssef
und Samir Tendawi

Gesang der Spinnen

und

andere deutsche Erzählungen

Dar SADER
Beyrouth, *Libanon*

HORST ERDMANN Verlag,
Herrenalb, *Deutschland*

1967



